

وغداً يأتي

طبعة ثانية مزيدة

٢٠٠٤

شريفة الشملان

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

رقم الإيداع

٢٠٠٤/١٤٠٦٩

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977-383-023-3

ايتـــراك للنشـــر والتـــوزيع

طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

صغيرة كنت أنشد مع الطالبات

نحن الشباب لنا الغد لم أكن أفقه معناها..

وعندما فقهته وجدت الشباب ولم أجد الغد.

فإلى كل الحالمين مثلي بأمل يأتي مع الغد

أهدي مجموعتي.

شريفة الشملان

مقدمة الطبعة الثانية

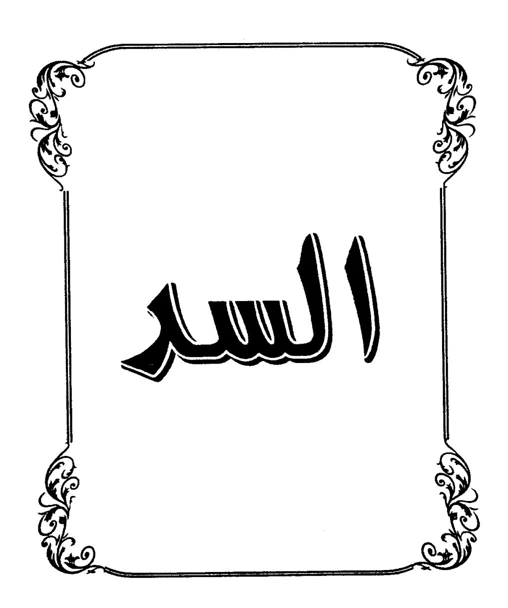
للغد شوق،

غدٌ يأتي، غد ليس كأي وقت مضى، لكي يأتي هذا الغد الحلم، علينا أن نبذر، نسقي ونسمد، قد تكون التربة لا زالت تمطر عليها آلاف الويلات، تغرس فيها الدمار..

لكن.. لا زلنا نثابر، كأقدم فلاحي هذه الأرض..

شريفة الشملان

لوحة الغلاف للفنانة/ **عفيفة العيبي.**


السد



احترنا جميعًا في سر هذا السد.. يقال إنه في أحد الصباحات الضبابية، قبل سنين لا يعرف عدتها أحد استيقظت قريتنا على وجود هذا السد الشاهق.. لا أحد يستطيع رؤية نهايته.. عال سامق هو، يتحدى السماء تتكسر رقابنا ولا نرى وسطه.. هَمُّنا به كبير.. كلٌ يبحث عن سره، عما خلفه؟ فقيه قريتنا يقول لنا إن خلف سدنا الهائل هذا سرًا عظيمًا لا نستطيع فهمه قبل أن نطهّر نفوسنا فنرقى لمعرفة ما خلفه..

عندما خرج لنا حكيم القرية من بين كتبه قال لنا مشجعًا.. علينا بالسد فإن خلفه معارف جمّة.. دعونا ننفذ فنجد كنوزًا للمعرفة.. نغرف منها كما نشاء.. بُحور للعلم وأشجار حبلى بالمعارف لحكماء معروفين ومجهولين.. لنقرأ العلم جيدًا بين أسطره نجد حلاً للغزنا مع السد..

راح بعضنا يسأله عن الكتب، بعضنا مط شفتيه ومضى حيث شاعرنا الذي يتربع في وسطنا وقال: رائع سدنا هذا.. لا شك أن ثورة عظيمة وراءه.. لماذا نخرقه؟.. لماذا لا ندعه هكذا نستلهم منه حلمًا جميلاً؟ نحلّق بأرواحنا خلفه.. نرى بحورًا لا مستقر لها.. نزرع وردًا أو ياسمينًا، لنصنع منها قلائد لعرائس البحر عالمًا جميلاً مسحورًا نخلقه نحن، فلمَ نحطمه، دعونا نرى أن خلفه حرية لا مثيل لها.. حرية الحاكم والمحكوم.. حرية الفَراش والزهر والنحل..

بقي بجانبه جماعة يصوغون قلائد من كلام، ومضينا لراوي قريتنا وقد كنا نسيناه زمنًا طويلاً.. قال: في كتبي القديمة حكايات كثيرة عن هذا السد

يقال إنه في آخر الزمان، يصحو الناس فيجدون سدًا عظيمًا.. تفتحه ريح تختلط بين غربيّة وشرقية لكنها قوية جدًا تقلع الأشجار وتهدم المنازل.. عندما يُفتح تنتشر بالجو مادة غريبة كل من يشمها يتحول إلى جماد بالحال.. ويبقى على هذا المنوال.. حتى يغير الله من حال إلى حال..

ولكن رغم كل ما قيل ويقال عن السد.. فإن همسًا سَرَى بيننا هو الذي انجذب أكثرنا له.. أن خلف السد أفعى كبيرة تحمل زهرة عجيبة، من يحصل على الزهرة، يأتمر الكل بأمره لا كبير ولا صغير إلا وهو عبْدٌ له..

في صباح يوم ربيعي شوهدت امرأة ملتفة بالسواد تضع طفلاً عند السد.. قيل إنها كانت طويلة كسعلاة.. وقيل أيضًا إنها تبخرت كدخان نحو السماء.. وبقي الطفل مكانه.. لم يقترب منه أحد فسار منادي قريتنا في الأزقة والطرقات ينادي: "من يربي طفلاً مشبوهًا.. من يرعى طفلاً عند السد مرميًا.." أحد لم يتقدم.. بقي الطفل مكانه يصرخ.. ويصرخ.. حتى سكت فأيقنّا أنه مات.. في الصباح التالي لم نعثر له على أثر.. احترنا في تفسير غيابه.. طار.. أو ذاب أو لعله جرته في الليل كلاب!!.. لا نجزم بشيء.. لكنا كنا جميعًا نجزم بسماع ضحكات طفل ممزوجة ببكاء عند غروب كل نهار.

حكايات سدنا تعودناها كما تعودناه.. ماتت أحلامنا في تجاوزه.. وبقي نفر قليل صامت لا يكف يدور حوله.. يرسم ويخطط.. ويرمز.. كنا نتركهم يفعلون ما يشاءون فسدّنا أقوى من أن يخترقه أحد..

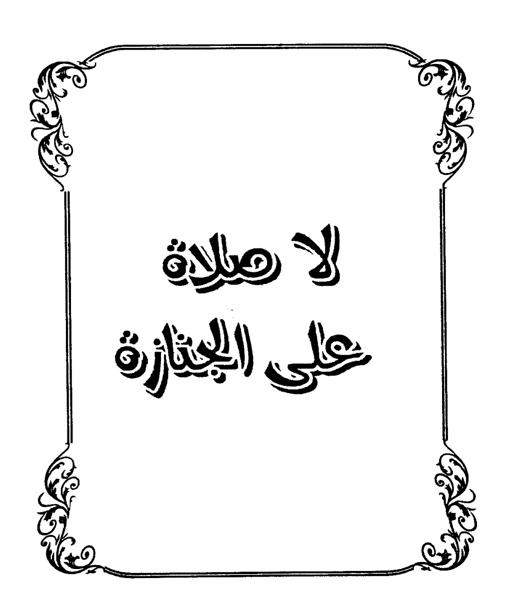


شتوية عامنا هذا لم تمر من قبل.. باردة هي صاقعة.. نزل البرد فيها فكاد يثقب سطوح منازلنا.. تحلقنا في بيوتنا حول نار الغضى بعد أن أوصدنا أبوابنا جيدًا..

وكثرت الحكايات.. ولعل أغربها وأدسمها حكاية المجنون الذي حاول صنع ثقب في السد لينفذ للجهة الأخرى.. لكنه لم يعد.. وكل منا ألّف حكاية ترضيه ويزهو بروايتها أمام الآخرين.. ولعل أقربها للتصديق أنه مجنون مات بحفرته.. لكن أحدًا لم ير جثته.. وقيل لتفسير ذلك.. روايات عدة أهمها أن الذئاب أكلته وما أكثر الذئاب التي تأكل الجثث..

بقي السد كبيرًا موصدًا تتكسر رقابنا ولا نرى نصفه ولكن ما زال أيضًا بقريتنا نفر يحاولون فهم سره.

١٨ / ١٢ / ١٩٨٠م


لا صلاة
على الجنازة

المشهد الأول..

عليّ أن أتخطى الجميع وأمضي.. أصعد المسرح بسرعة أقف أمامهم.. أصرخ بأعلى صوتي.. تردد الجدران صداه.. المتفرجون يدورون ظهورهم، يخرجون زرافًا!!! أزعق.. وحدي أزعق.. النار شرارة صغيرة في أسفل الستارة.. "النار" لا أحد يرد.. تقترب النار مني.. تمد ألسنتها اللهيبة في كل مكان أحاول أن أطفئها لا أستطيع.. المسرح يحترق..

النار في أسفل مشتعلة أنا.. أحترق.. أزعق بالناس بالمرارة.. لا أحد ينجدني، يركبون القطارات والسيارات ويتركونني.. أمزّق ثوبي.. وألم حاد حتى القطع في خاصرتي..

المشهد الثاني..

عند باب المسجد يقفون.. يبَسمِلون ويحَوقِلون.. أتساءل:

أتراهم ينتظرون الجنازة؟

هل سيصلون عليّ؟

ملفوفة أنا، كفن أسْوَد.. أسود يحيطني "الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر" يصلون يذرفون الدموع.. أشق لفائفي.. أصرخ بهم يهرب الإمام.. يركضون.. يتساقط بعضهم فوق بعض..

عجوز عوراء تلوك تمتد يدها لي.. تمسكني بأصابع من حديد "لا يهمك أمرهم.. تعالي عندي".. صوتها يخرج كفحيح أفعى.

المشهد الثالث..

مؤكد هذا ليس بيتًا، كل شيء به غريب غريب.. العجوز ما زالت تلوك العلكة.. غرف كثيرة (كيف تسكنين كل هذه الغرف أيتها العجوز؟) تفرك عينها المُبصرة، تقول وهي تضغط صدري..

"ستفهمين فيما بعد لِمَ"

لا أنتظر حتى أفهم.. سأجازف.. أفتح الغرف متفرجون يملئون المكان، كلٌ يلهو.. وكل يعبث، الرائحة النتنة بالمكان.. أغلق أنفي.. أترك الغرف مفتوحة الأبواب وأمضي..

أين أهرب..؟

سؤال يلح على أعصابي المنهمكة.. عليّ ألاّ أسقط.. أكتشف أن كلي دم، أسفلي دم.. في عيوني دم.. كل قطعة مني تزرف دمًا.. سأرمي نفسي في النهر لأتطهر..



المشهد الرابع..

لا نهر في المدينة..

هرب النهر ذات يوم أسود، يقال إن الشمس رفضت أن تشرق فيه على من لا يستحقها عندما اشتاق النهر للشمس تساءل:

لماذا لا تشرق الشمس..؟

أعلمه همسًا الشجر بذلك..

حمل النهر نفسه وهرب..

جلست أنتظر غيمة.. أريد مطرًا..

مطرًا يغسلني.. لكني لا أرى شيئًا وبقيت بعاري..

مشهد خلفي..

كل يوم تُمزق ثيابي..

قتلوني مرات عديدة.. أقسموا لبعضهم البعض أن يعيدوني للحياة، شرُّ بَلِيَّة قومي ما يضحك..

وأشرّ منهم كـبهم..

أوّاه يا كبدي.. أي سر ذاع لا يذاع..

المشهد الأول مكرر..

المسرح يمتلئ مرة أخرى..

الجماهير تملأ الأرجاء، الشرفات، والطرقات..

تبًا لكم كم تتناسلون، كأنكم تأكلون كي تتناسلوا.. لا شيء غير ذلك.. لكل عشرة آلاف منكم واحد من أبناء إبليس يغويه.. لم يكن لي دَوْر على المسرح.. أتضاءل.. عيناي ممطوطتان ينادون على اسمي، يشقون الثياب..

أولاد إبليس يقهقهون، يحملون العجل به، يرقصون.. تشاركهم الجماهير تنسى موضوعي يتبادلون الأنخاب..

تصدح الموسيقى.. قوية.. قوية، ويقوى الرقص أكثر فأكثر.. يصعد أولاد إبليس المسرح.. ينهار المسرح.. قهقهة أولاد إبليس تملأ الأرجاء، تحت أقدامهم أنا..

متفتتة.. أجزاء متناثرة..

أهُم موتى.. أم أنا وحدي الميتة بلا جنازة ولا صلاة..

١٩٨١/٤/١٣م




سيرة
البيت الرخامي

ارتجف الكتاب بيدها، رفعت رأسها بآلية مدت يدها لتتناول منه فنجان القهوة.. شيء ما تأجج في داخلها.. أنار كل أعماقها، وكأنما استيقظت شموس ربيعها بعد طول إغفاء..

رائع هذا الشعور الذي طغى على قلبها وغشى كل كيانها لا تدري كيف أمسكت بفنجان القهوة، وهل قالت شكرًا أم لا؟.. أمّا طعم القهوة فلا تدري كيف كانت نكهته؟

أسمر، كث اللحية أسودها.. لعينيه بريق شق صدرها وغار حتى حرك هذا الساكن في داخلها.. لا تنكر أنها مرت بمحطات في حياتها التقت بكثيرين.. لكن أحدهم لم يضئ روحها كما تشرق الآن.. أزمنة الزرع، وأزمنة الحصاد كثيرة ومتشعبة.. شرقت وغرّبت.. عركت الحياة وعركتها.. فازت بشهادات، وفاز بها عمل أغرقت نفسها به عشقًا دائمًا كل عام تكبر ومعها تكبر المسئوليات حتى أن خيوط القرارات صارت تنتهي بتوقيعها..

بيت جميل بنَته، رائع خططت لكل ركن به.. أجمل أنواع الرخام ذاك البيج المعشق بالوردي لبسه منزلها حلة.. في أركانه حلت شجيرات زينة رائعة، وتدلت من أسقفه ثريات أبدعت أيد نمساوية في صنعها.

طاولة طعامها تمتد غدوة وعشية، للقليل تمد يدها، لولا كبرياؤها لدعت الخدم ليدفئوا المقاعد الباردة..



محطات العمر كثيرة، ازدحم بعضها وأقفر البعض الآخر.. الوالدان عادا لرحم أمهما الأرض، والإخوة والأخوات كلٌّ أينع غصنه وتجذر إلا هي ما زالت أرضًا بورًا..

تمسح عينها من تحت النظارة، فنجان القهوة ما انفك بيدها اليمنى وقد برد، شربته جرعة واحدة.. مدت يدها له مرة أخرى صب لها أعطت نفسها فرصة أخرى لرؤيته جيدًا وقراءة اسمه.

هل تزدهر أحلامها معه..؟ ربما.. دعت الآمال تدغدغ قلبها مستعذبة، رسمت حروف اسمه على قلبها.. كم تكبره؟ سؤال ألح عليها.. بدأت تجيب نفسها..

ربما عشرة..

لا.. ربما خمسة..

ثم اختصرتها حتى كاد يوم مولدها يصادف يوم ميلاده، من كيسها أخرجت مرآة صغيرة أطلت على وجهها، مشرقة ما زالت..

لماذا لا يكون هذا الشاب من حظها، يده خالية من الخاتم لكن أغلب الرجال لا يلبسونه.. لا يهم ستبني أحلامها على أساس أنه أعزب.. تسترسل، وعقلها يدور بالبيت الرخامي.. كم يحتاج دفئًا وحيوية، كم يحتاج لأطفال يشعون بهجة به، (أطفال).. تعصف الكلمة في رأسها.. تمد يدها تتحسس بطنها تعد سنينها، ربما ثلاثة سترزق لو أرضعتهم خمسة لو لم ترضع إنها تحب الأطفال، وخمسة أفضل من ثلاثة، هو

يروح ويغدو، يزرع بهجة وحيوية في الدرجة الأولى حيث تسافر هي.. كم هو متوهج ورائع هذا المضيف.. المطار يقترب.. وصوته الدافئ الجهوري يعلن نهاية الرحلة ويطلب ربط الأحزمة ولا يدرى أن هناك قلبًا يبني أحلامًا عليه، حلمها لن تدعه يتلاشى تخرج كتابًا من حقيبتها اسمها وعنوانها واضحان عليه، تتركه في المقعد المجاور ينزل كل الركاب تتهادى نازلة.. يلحقها صوته.. "سيدتي.. سيدتي نسيت كتابا.." تتماسك تمد يدها تستلم الكتاب.. ترد بتمتمة "شكرًا" وتتكاثف غيوم خريفها.

١٨/١١/١٩٩٢م






للفئران
آذان وشوارب



اكتشفت أنني فأر تحورَت أذناي فأصبحت أذنيْ فأر كذا شواربي، اكتشفت ذلك عندما نظرت لنفسي في صحن الطعام، لم أقرب الطعام، الفأر لا يأكل الجبن أو الخبز، قرضت شيئًا من الخبز وتركت الباقي عندما أتوا ليأخذوا الأواني اكتشفوا أنني لم آكل شيئًا سبّوني، شتموا جدي. وقالوا عني إنني فأر حقير لم أهتم.

حجرتي كانت ضيقة جدًا، لم أكن أتحرك كما ينبغي.. وآه من رائحة العرق والبول والـ..

بها فتحتان عاليتان جدًا أرى بصيصًا من السماء منهما، وتجلب أحيانًا شيئًا من الهواء، أحيانًا توقظني عصافير الصباح أهب جذلاً.. لكنها سرعان ما تغادر وتتركني..

أفرح كالطفل عندما يأتي المطر أشعر أنني أتحرر، أترك الزنزانة.. أخوض في مستنقعات حارتنا.. أرقص وأغني للمطر..

وفتحة أخرى أسفل، يصلني عبرها الطعام يمد لي بإناء يشبه المسحاة طرفه عندي، والطرف الثاني للخارج.. أفرح عندما يقدمونه لي أشعر أنني أتصالح مع العالم، أجُرُه.. أهُزُه.. أحس اليد الأخرى تدفعه أيضًا.. أنتظر هذه اللحظات على أحر من الجمر.. لحظات تواصل تبرق ثم تنطفئ..

صديقي اللواء منذ أيام سحيقة، خطبتُ بالمقاهي والنوادي من أجله ارتدتُ المساجد وأطلقتُ لحيتي وحلقتُ شاربي.. حساباتنا سويًا يقف – أنا خلفه، يجلس وأجلس بعده.. طويل هو.. سبحان خالقه.. ذكيّ هو.. سبحانه واهب الذكاء.. قادنا من نصر إلى نصر حطمنا الأوباش.. وحرقنا أصنام العهود البائدة.. الرجل الأول والثاني والثالث.. ومجمع كل الرجال هو.. سبحان واهب الرجولة.. يكبر ونحن نتقزّم عندما يلعلع صوته تخفت كل الأصوات.. الأمة هو والوطن هو.. وهو هو.. لا أمة بلا أعداء وأعداء الداخل أشد، قيل قديمًا (علّة البطن لا علاج لها) دعاني ذات يوم.. فرحت جدًا ظهرت صورتي معه في التليفزيون.. مشيت مختالاً أيامًا وليالي.. أغلق عليّ الباب معه.. حدثني عن أعدائه وأعداء الأمة والوطن عن العلة الداخلية.. قال لي عن شرف عظيم إنه يثق بي وإن الجميع يعلمون كم هو صديقي ويطلب مني أن أجمع أعداء الوطن في داري أن أسبر أغوارهم.. باح لي والباب مغلق علينا أنه لن ينسى وطنيتي أبدًا ومن أجل ذلك، فإنني بحل أن أقول عنه ما أقول، فأُعطي فرصة لأعداء الوطن يقولون ما يريدون.. ومن ثم يقبض عليهم ويتخلص الوطن من شرهم. خرجت ورأسي يعانق السماء.

الوليمة المؤامرة..

وليمة في منزلي أعددتها لأعداء الوطن.. رتبت كل المجالس، وجهزت كل الصواني علقت في الثريات ناقلات الأصوات.

حضر الأوباش أعداء الوطن. تعشّوا وأكلوا حتى انتفخت كروشهم.. وبدأتُ الحديث، وجدت أنني أخطب وأخطب شخصت لي وجوههم.. قلت ما لا يقال باللواء.. حدثتهم عن أيام الصبا، عن الطتف الذي تسلقه.. عرضت أمامهم صورًا لأيام غبر، تفرجوا على شعر الزعيم المنفوش، على أقدامه الحافية، على ثيابه الرثة، قلت لهم كل ما لا يقال.. وهم صامتون.. وبدأ بعضهم ينسل مسرعًا خائفًا والبعض مستمتعًا مأخوذًا..

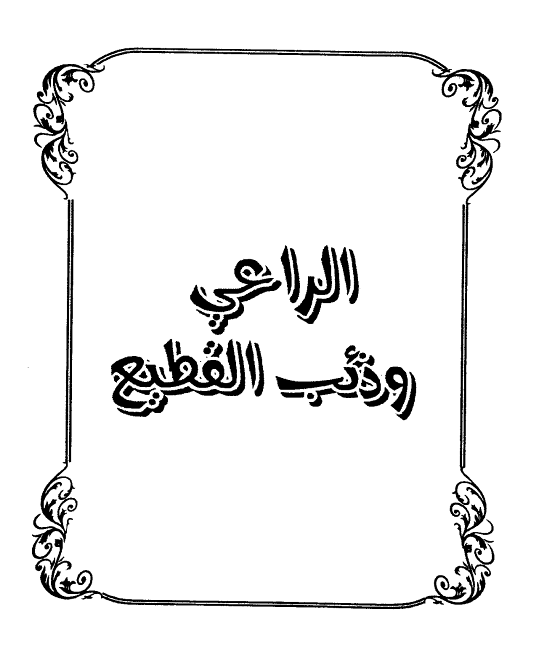
ثم حضر الجنود.. وأذيع من كل مكان نبأ المؤامرة.. وبدلاً من أن أخرج.. أصبحت قائدها..

القسم..

أقسمت لكل من قابلني أنها خطة الزعيم.. وكلما أقسمت كلما ازدان جسمي بنياشين خاصة.. بعدها أقسمت أن لا أتكلم وبعد ليالي لم تمر أيامها.. نقلت إلى هنا.. وبدأت أستمرئ عيشتي.. وأتذكر أنني أديت خدمة الوطن.. ألم يكفِ أن ألقوا القبض على أعدائه!!

من مكاني صادفتهم.. خرج أولهم وتركت له طعامي يعبث به كما يشاء.. ومن ثم خرج الثاني أصبحت أحكي لهم وهم ينظرون لي.. كم عيونهم سوداء جميلة لامعة.. أصبحنا أسرة.. أخيرًا قررت أن أكون واحدًا منهم.. تحورت أذناني.. تحور شاربي.. وجدت أن زنزانتي أصبحت أكبر.

٥/٣/١٩٨٩م


الراعي
وذئب القطيع



الراعي يبتهج وهو يرعى غنمه، يحمل الناي دائمًا معه يصفر ألحانًا جميلة، تأتي له الأغنام طائعة، الكلاب تحرسها يمينًا وشمالاً وكلما شذت نعجة تبحث عنها الكلاب لتعيدها للقطيع.

الراعي يترك أغنامه أحيانًا برعاية الكلاب، وينام عند اشتداد الحر تحت ظل دوحة كبيرة.. نبحت الكلاب ذات ظُهر نباحًا شديدًا عرف أنها شاهدت ذئبًا لكن الذئب لم يركض خائفًا كعادة كل الذئاب.. بل طأطأ رأسه ومضى بهدوء وفي الظهيرة التالية حدث الشيء نفسه، حتى أصبح صديقًا للكلاب فألفته وألفها تعوده الراعي وتعودته الأغنام وبدأت ألفة عجيبة بينه وبين الراعي فأصبح يعرف ما يخرج من ناي الراعي من نفحات، فيستجيب لها قبل الكلاب فعينه مفتوحة يراقب كل شيء.

ضرب الراعي أخماسًا بأسداس، وقال في نفسه: الذئب وأمنت شره فما حاجتي بكلاب أغذيها وتكلفني وتزعجني بنباحها وبدأ يستغني عن كلابه، كلبًا فكلبًا حتى لم يبق له إلا الذئب حارسًا لغنمه.

لف الذئب لسانه مرات حول شفتيه وأجال عينيه، هي الفرصة أتت له.. عندما ذهب الراعي ليرتاح تحت ظل الشجرة ظهرًا كعادته، سطا الذئب على شاة، عد الراعي غنمه وجدها قد نقصت شاة.. شك في الذئب لكنه قال في نفسه "إن بعض الشك لإثم" لعلها نفقت في مكان ما..

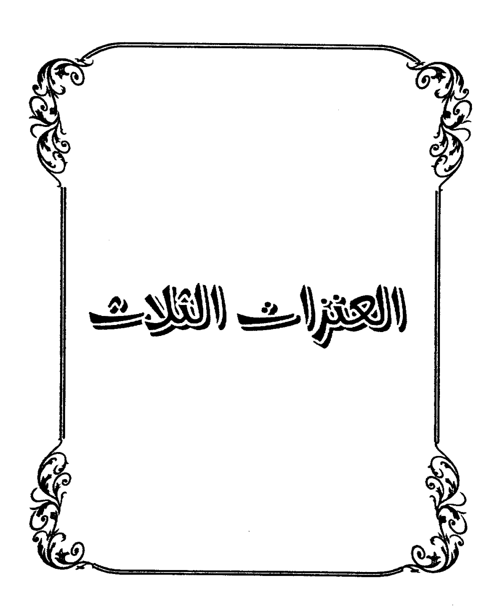


في الظهيرة التالية، حدث الشيء نفسه، وهكذا حتى أتى الذئب على كل غنم القطيع.. والراعي خائف لا يدري ما يفعل، إذ كلما أكل الذئب شاة، قال الحمد لله أنه أكل الشاة ولم يأكلني، لم يجد الراعي غنمًا يرعاها.. وقلبه مليء بالرعب من الذئب.. لذا قرر ألا يخرج من بيته.. لكن الذئب لم يتركه هجم عليه أثناء نومه وأكله، بادئًا من قدميه..

٣/١١/١٩٩١م







العثرات الثلاث



اللهم اجعله خيرًا، حلمت حلمًا لطيفًا وغريبًا بأن ثلاث عنزات جميلات لونهن كحليب مُزج بقليل من الشاي، لكل منهن قرنان صغيران كحجم عقلة الإصبع، في رقابهن تتدلى زائدتان لحميتان في غاية الجمال، عيونهن براقة حيث يملأ السواد كل العين أما أطرافها فكأنما كحلتا بكحل لا يزول..

اللهم اجعله خيرًا، ذلك الحلم، كانت العنزات يدُرن برؤوسهن ذات اليمين وذات الشمال، يرددن "ماء.. ماء" بتناغم موحد.. ودخلن غرفتي وكنت أشعر بألفة رائعة معهن.. صعدن على سريري، نمن معي..

اللهم اجعله خيرًا، عنزات في غاية الأدب، لم يبد منهن أي سوء تصرف، عندما يحتجن لقضاء الحاجة يخرجن بهدوء لساحة البيت، وبعد الانتهاء يغمرن ذلك الشيء بالتراب.. كنت أنظر لهن من الشباك، في داخلي أقول "سيكون زرع حوشنا جيدًا هذا العام".

اللهم اجعله خيرًا..

ذكرتني تلك العنزات بعنز جدتي، شكلها تمامًا كأنهن نسخ منها.. كانت جدتي تحبها حبًا جمًا، فهي أنيستها في وحدتها، ودليلها بعد أن فقدت بصرها تضع رأسها برأسها وكأنما تتناجيان خاصة عند انتظار حضور "الشاوي" ليصحبها للمرعى.. العنز كانت كأم رؤوم لجدتي تطعمها اللبن والزبد، تجمع جدتي اللبن الفائض في جراب من القماش، تعمل منه شيئًا لذيذًا، بين ما عرفناه فينا بعد باللبنة والجبن إذا زاد أكثر

وأكثر خاصة بعد ما تنجب العنز، تجففه جدتي فيكون أشبه بالأقط[1] تقوم بتنعيمه وخلطه بالتمر، فيعطي طعمًا بين الحامض والحلو، كانت جدتي تعطينا منه هبة عندما نقوم ببعض الأعمال البسيطة لها، كاصطحابها لبيت جارتها أم ناصر أو إبلاغ رسالة لإحدى خالاتنا وأحيانًا كثيرة عندما نلجأ إليها شاكين ضرب أمهاتنا..

اللهم اجعله خيرًا.. صحوت ذات صباح على بكاء أمي.. بكت كما لم أرها تبكي من قبل أبدًا، قلت في سري ماتت "جدتي" جلست بجانبها نحبت معها ما شاء لي النحيب ثم مللت فانصرفت للعب مع لدائني.. وجِلَ قلبي بعنف وأنا أمر على بيت جدتي وخيل إليّ أنها تنظر لي من شقوق بابها الكبيرة، ثم تذكرت أنها عمياء.. قالت صديقتي: "إنها امرأة طيبة سيعيد الله بصرها في الآخرة"..

ضربتني أمي شر ضربة، وقالت معللة ذلك بأني نقلت إشاعة موت جدتي بين بنات الحي، فغرت فاهي دهشة، وهان علي الضرب عند فرحتي بسلامة جدتي، ولكنى سألتها: من مات إذن؟ أتذكر أنها جاهدت ضحكة ممزوجة بالحزن ومسحت على ظهري المضروب وقالت: عنزة جدتك..

وقتها ضحكت كثيرًا كثيرًا وقلت: كل ذلك من أجل عنز.. قالت أمي: "نحن لا نبكي العنز قدر ما نبكي حزن جدتك، ألا تعرفين أنها كل شيء بالنسبة لها". ثبتت صورة تلك العنز في مخيلتي فترة، ثم

---

(١) الأقط: جبن مجفف.

نسيتها في مشاغل الحياة الكثيرة.. حتى كان الحلم.. اللهم اجعله خيرًا، تلك العنزات الثلاث كعنز جدتي..

سألت جارتي التقية قالت لي إن شاء الله خيرًا، العنز دليل الخير والبركة لابد أن خيرًا كثيرًا سيصيبك..

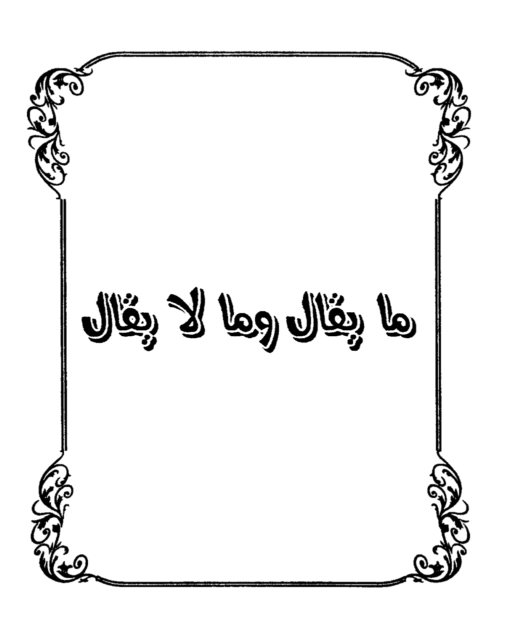
فتحت كتاب الأحلام، هالني شرحه فالعنز به نذير شؤم، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، أغلقت الكتاب، واكتفيت بتفسير جارتي..

ولكن كل يوم يلح علي ذلك الحلم، حتى أصبحت أعايشه، أراهنّ أمامي يتقافزن على سريري، فوق طاولة مطبخي، في الحديقة والصالة عندما أنظر للمرآة أرى وجهي صار كوجوههن سمحًا طيبًا، لونه كحليب مزج بقليل من الشاي في رقبتي تتدلى لحميتان جميلتان، تمتد يدي دومًا للعبث بهما لقد كانت العنزات ثلاثًا فأصبحنا أربع رؤوسنا نحركها بتناغم موحد، لفوق لتحت، لفوق لتحت..

١٨/١٢/١٩٩٢م







ما يقال وما لا يقال



عاشت خيالاتها زمنًا طويلاً.. درست فيها وتثقفت.. تزوجت وأنجبت أبناء ينادونها "ماما".. تخبئهم في دولاب ملابسها تخرجهم غفلة تغطيهم بلحافها تحدثهم عن مستقبلهم، أحمد لا بد أن تجاهد كي تكون طبيبًا مرموقًا وأنت يا عيسى أعرف أنك تهوى الأدب والفن، لا بأس، لكن لا طريق يُفتح بدون علم فعليك به يا حبيبي أما أنت يا فاطمة.. فالطوق حولك كبير، وعليك أن تكسريه.. أن تحققي كل أحلام النساء، وهو حمل آلاف السنين.

عندما ينامون كانت ترقدهم.. فاطمة على يمينها وأحمد على شمالها، أما عيسى فهو أكبرهم فتتناوب معه النوم على المخدة هكذا عاشت خيالاتها وأصبحت واقعها تعودت أمها وأخواتها أن يجدنها تنام على الكرسي أغلب الليالي، أحد لم يسألها شيئًا.. ربما كل منهن مشغول بآلامه وأحلامه، وكان يوم صرخت حتى فجعت كل من في البيت أوقظت النائم وأسمعت عويلها كل بعيد، مسوا جبينها وجدوه كالنار وكانت تهذي (فاطمة بها حمى فظيعة بها لهب..)

الباب الموصد صر ليفتح بعد سنين انغلاق.. مجبر أبوها حملها للمستشفى رأسها محموم تخرج أنات مبحوحة متحشرجة. عامل المستشفى أحضر الكرسي أجلسها بهدوء، دفعها أوصلها عند الطبيب.

شُخِّصت حالتها.. اكتئاب شديد أدى إلى انهيار عصبي غرسوا إبرة في عرقها بدأت تهذي.. سار بها العامل.. عند باب الغرفة لم يستطع

الوالد عمل شيء رفعها العامل بمساعدة الممرضة للسرير.. ثم بغفلة منهم مسح على جبينها رغم مفعول الإبرة أحست مسحته.. وبدأت حكاية، العامل يمر يوميًا على الغرفة يضع الكرسي عند الباب ويدخل تتواصل حكاياتها.. قال لها كثيرًا، وقالت له باختصار إنه خير أب لأحمد وعيسى وفاطمة..، قبل هو الأبوة.. قالت انظر لقد شفيت فاطمة.. ذهبت عنها الحمى.. لم يكتم ضحكته بل مال على طرف المخدة وقبل الهواء.

عجبت الممرضات والطبيب كيف استطاعت المريضة أن تتكلم الإنجليزية بسرعة وهى سجينة البيت لأعوام عديدة.. سألوها أجابتهم أن زوجها أبو أحمد وعيسى وفاطمة علمها إياها، كان الطبيب يحاول بسرعة كتم ضحكته أما الممرضات فكن يخفين وجوههن.

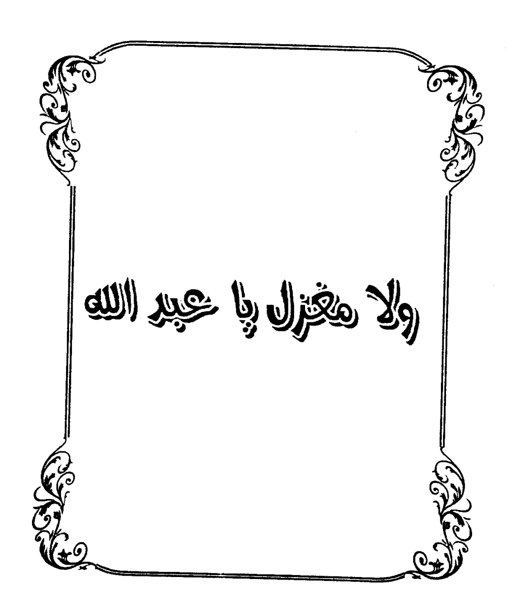
عادت للبيت أغلقت الأبواب كالعادة.. لكنها فتحت لنفسها طاقة أخرى كل مساء تجلس لتكلمه وتناجيه، تحكي له قصص الصغار وتربيتهم وأنها تحرسهم كي يكبروا.. ولابد أن يرعاهم.. كل ذاك عبر جهاز تحمله معها أينما ذهبت.. وتخبئه في طيات ملابسها، أبوها في غرفته بالبيت الثاني.. ينام مستقرًا قرير العين يحمد الله على نعمته، خاصة وأن ابنته عادت للبيت سالمة.. وكفاه الله شر ما يقال وما لا يقال.

٨/٥/١٩٨٩م









ولا مغزل پا عبد الله



كنت تتابع بعينيك الصغيرتين لفات المغزل، عيناك السوداوان أُصبِح بهما وأُمسي.. عندما تلف عينيك يلف رأسك بغطائه الجميل الذي طرزته لك بخيوط من الزرى.. أنشد لك الأزجال الجميلة تبتسم وتضحك ثم تقهقه قهقهاتك الطفولية الجميلة، وأنا ألف وألف المغزل..

أغزل خيوطًا متينة، سألونها ألوانًا زاهية كإشراقة الصباح، عندما يلفح وجه رمال الصحراء.. وسأصنع لك سجادة كبيرة أفرشها بخيمة عُرسك.. عندما أفكر بعرسك يا عبد الله يهزني فرح رائع أجدني أغني ألقي المغزل وألف رأسي طربًا يمينًا وشمالاً أنثر شَعري الأجعد الطويل..

قلت لنفسي بعد أن أنتهي من صنع سجادة عرسك سأشتري صوفًا ناعمًا وأغزله ثم أصبغه بالسواد لأصنع لك عباءة أوشيها بخيوط من الزرى تلك عباءة عرسك وأتخيلك متبخترًا بها بشارب أسود وقامة تكاد تعانق السماء.

عندما رفعت رأسي لك، وجدتك قد غفوت أحطتك بسورة الرحمن وآية الكرسي، عوذتك بالله من شر كل هامة وعين لامة..

تكبر يا عبد الله والحلم يكبر وألُف المغزل باستمرار لأكمل تجهيز حلمي لك وبك، وتلفني وإياك الحياة.. درست.. كبرت.. في البداية قلت سيقرأ عبد الله القرآن ويؤمني لصلاة التراويح.. قلت سنصنع بيتًا جميلاً من شَعر الإبل أغزله ليل نهار.. نحيطه بالداخل بالسجاد الزاهي

والوسائد الجميلة على جوانبه، وقلت سأخرج لك سجادة عرسك وأفرشها، لكن لم نصنع البيت الصوفي، من الأسمنت والحديد بنيت لنا بيتًا لفحتني الهاجرة وأصدعني صوت جهاز التكييف، بحثت عنك لأكلمك وجدتك بعيدًا عني وإن كنت قريب الجسم.

أردت إخراج عباءة عرسك فتحت صندوقي الخشبي شهقت يا عبد الله عباءة عرسك أكلتها العثة، ورب الكعبة أكلتها العثة.. لم يبق منها إلا زري الهندي..

حزنت وبكيت فسمعتَ نشيجي، طيبتَ خاطري وقلت سنشترى عباءة جديدة لعرسك من الأحساء عندما يحين وقت زواجك لكنك لم تحتج لعباءة.. أحضرتها منفوشة الشعر صفراء.. تحتضنك بساعديها وكأنها سجان يخشى أن يفر سجينه.. لا تعرف رائحة البخور وما عرفت طعم القهوة بالهيل والزعفران.. فكيف ستعرف قيمة عباءة العرس السوداء وكنتَ مبهورًا بها.. وكنتُ محبطة بك يا عبد الله..

قدم الطفل الأول..

حافية للمستشفى الكبير ركضْت.. أبوا أن أدخله.. وقفت أنتظرك عند الباب خرجتَ تحمل الوليد تتقدمك أمه، أتيتك أريده..

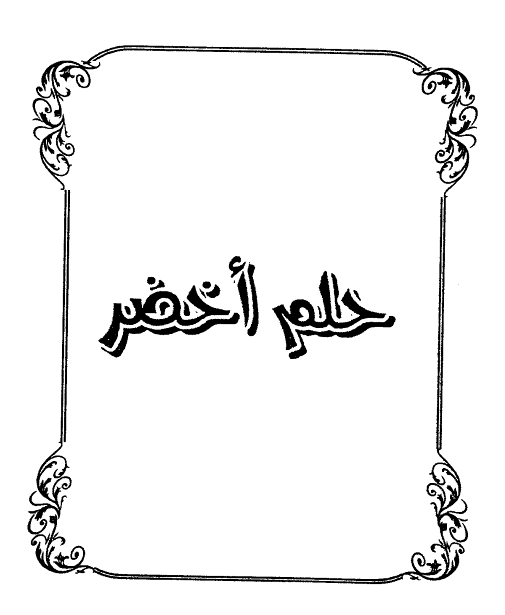
آه يا كبدي يا أنت.. عيونك خجلى.. دفعتني للسيارة بسرعة أركب، لهفتي ما زالت تحاصرني.. أريد طفلك أضمه.. ألثمه.. لا أعرف رطين زوجتك، لكني فهمتها، تخشى على الصغير مني..



أطلب فقط أن أراه، تكشف لي وجهه.. تفتح الغطاء ببطء.. أراه عيناه زجاجتان زرقاوان.. لا ليس مني يا عبد الله ولست منه وأنت تنفصل بعيدًا عني تلف السيارة وتدخل فناء البيت الأسمنتي.. يلف رأسي يلفني لف المغزل... ولا مغزل يا عبد الله.

١٨/١٢/١٩٩٣م




حلم أخضر



لا تدري كم قصة كتبَت.. كل يوم تكتب.. تكتب الكثير.. وتمزق الكثير.. لا تنام إلا وهناك مشروع قصة يتوسد معها مخدتها.. في الصباح تكتب.. تنمق تزوق.. تضيف أجمل العبارات.. بأروع خط تكتب.. تحمل قصتها سورة "ياسين".. تلصق الطابع بالركن الأيمن وترسلها، له ترسلها.. هذا الكاتب الذي يتخلل وجدانها.. يرتجف قلبها وهي تتخيله يفتح المظروف.. لعله يعرف خطها.. ولون رسائلها وربما يبتسم قارئًا اسمها.. لا شك أنه يقفز فرحًا.. تشعر أن علاقة خاصة تربط بينه وبينها، ربما يريد لها مزيدًا من الإتقان لذا لا ينشر قصصها.. تتجرأ تهاتفه.. يتحاوران يزغرد أمل في جنباتها.. يعرفها يناديها باسمها الأول.. طير خيالاتها يرسم ورودًا بألوان قوس قزح.. تدخل صورته ثنايا كتبها..

قصتها الجديدة.. أجمل ما عندها أودعتها.. دفعت بها كل حلم عبق حلمت، ملأتها بلواعج نفسها.. القصة هذه رصعتها بأجمل مكنوناتها لأول مرة لا تحس أنها تكتب إنما تطير.. الكلمات ترقص.. الحروف تغني تجدها تكتب شعرًا ممزوجًا بالنثر.. الكلمات تنطق بين أناملها وكأنها تغرف من بحر لا قرار له.. بحر لا يعرف غير المرجان والمحار تزينه أعشاب خضر.. تشعر أن القصة هذه حلم حياتها.. أجمل قصة كتبتها في عمرها الغض.. لا تنام إلا والقصة يلفها الظرف

الوردي.. تلصق الطابع.. تزفها بآية الكرسي تكلّمه.. لهفة تسأله: هل وصلت القصة؟

يقرؤها لها.. تصحح له.. يندمجان معًا تذوب بعالمه.. مع قصتها الكبرى.. يقول لها ستهز الأدب قصتك هذه..

ينغم كلماته ويقول معلقًا.. "من أين أتيت بكل هذه القناديل.. كيف زرعتها بالشوارع المقفرة؟!".

يمتد الحديث ويطول الكلام، تحكي له حكايات طفولتها والحناء الحمر بكفيها تحكي له قصص العيد والجدائل السود.. تكلمه عن شبابها الغض وكلِّيّتها الكئيبة تنثر ضحكاتها وردًا على أسلاك الهاتف.. ويزغرد حلم أخضر في جوانحها تظفر بوعد للنشر.. العدد القادم.. وتبدأ تعد الأيام.. الساعات بطيئة تمر.. ساعات ينبلج بعدها الصبح حاملاً البشرى.. ستمضي للمكتبة قبل الكلية.. ستقرأ القصة مع صديقاتها ومع أستاذة الأدب العربي..

سترى اسمها مجدولاً بآخر صفحة.. فزت فزعة.. كيف نامت وحلمها الأخضر على الأبواب.. المكتبة مغلقة تبًا لصاحب المكتبة الكسول لن تذهب للكلية ستجد عذرًا لأمها.. تعود للمنزل.. في التاسعة لم تصل المجلة بعد.. العاشرة الحلم بين يديها تقرأ الغلاف لا شيء.. لابد أنها بالداخل لا أثر لقصتها.. تقرأ قصة حلمها الأخضر تشتعل به النيران.. قصتها تغير عنوانها تكاد تجن، تطلبه لا يرد.. لابد أن تنتقم.. تكلم رئيس التحرير.. يقول لها: "لا يا فتاتي.. لا تظلميه.. جدي

فرصتك بنفسك.. لا تصعدي على أكتاف الكبار" تحاول أن تجادله يعتذر ليس لديه وقت.. تضع السماعة، كل مياه العالم تندلق فوق رأسها المحموم.. تضع رأسها على المخدة.. لكن لا تنام.. تتبعث أفاع من غرفتها.. الخزانة.. الأدراج.. مسودات القصة الشعرية تصمم أن تحارب الأفاعي تنهض تفتح شباك غرفتها.. وتملأ قلمها حبرًا.

١٩٨٦/٧/٣م



امرأة أخرى



بالحليب الممزوج بشتى أنواع الدهون المعطرة، تزيل آثار التزين ليلاً، فإذا ما كانت الساعة العاشرة صباحًا، نهضت تتمطى.. تأتي المدلكة لتنثر على جسمها أنواعًا مختلفة من مشدات للعضلات ومنعمات للبشرة.. أخشى ما كانت تخشاه.. ترهل صدرها، من أجل ذلك لم ترضع صغيرتها، عند الواحدة ظهرًا، ترتشف كأسًا من عصير البرتقال أو الجزر.. حيث ترتاح عندما تتأكد من أن كل شيء بها يلمع.. عند ذلك تأخذ حمامًا بخاريًا، بعده حمامًا باردًا.. والمزينة تعبث بتاجها الذي امتزجت ألوان خصلاته، هي تنظر برضًا لوجهها.. لا زالت البضة البيضاء.. لا زال رأس مالها جسد مشدود ووجه أبيض مشرق وشعر تتابع أحدث الأساليب للعناية به.. تدور حول نفسها مطمئنة.. لقد تلقت الدرس صغيرة، وحفظته جيدًا كبيرة..

لا تزال تذكر كيف تصارع صبية الحي على تلك الجميلة الصغيرة الحيِيَّة، وفاز بها أثبتهم عقلاً وأوفرهم مالاً.. فأصبح مركزًا تدور كل ذرات كيانها حوله، بنتان جميلتان أنجبت، صورة منها، لكنهما تتحديان كلامها، لهما اهتمامات كثيرة، من بينها القراءة التي تكاد تخطف بصريهما.. تعتبر نفسها إلى حد كبير مسئولة عن ذلك.. لقد تركت أمر رعايتهما لمربية فاضلة، لكنها صارمة من ناحية العقل.. الولد لم يهمها أمره، أنجبته أم لم تنجبه.. فحب زوجها لها لا يعادله حب، من أجل ذلك فعليها الاحتفاظ بهذا الحب حتى آخر حياتها.



تتمطى ليلاً تنتظر عودته.. وتتمطى ثقلاً وغنجًا عندما يعود من سفر، لا تحب أن ترافقه في سفراته، عالم السفر متعب، هي تريد أن تمنح نفسها فرصة انتظاره، من سفرته الأخيرة عاد.. قال لها حدسها في الأمر شيء. لم يلحظ قميصها الجديد، ولا صبغة شعرها، ولا تغييرها أدوات زينتها لتبدو أشد نضارة، لم يكن متعبًا، كان فرحًا يصفر لحنًا لطيفًا في الحمام، صوته يصل لها وهي تتطيب له ثم نام فجأة بعد أن طبع قبلة مجاملة على جبهتها..

حساب الزمن.. وحساب الجسد، والعقل الذي خاف الخسارة تحرك.. بعثت بقرون استشعار لها في كل مكان يطرقه وجاءتها الأنباء، مضيفة جميلة على الخطوط الفلانية.. لذا فقد غير جميع رحلاته لتلك الخطوط والعلاقة تتطور إذ شوهد بمطعم في باريس، وبفندق بسنغافورا..

حساب الزمن والعشرة والأهل والبنتين، يرجح كفتها، وحساب الشك يحطم أعصابها، فنسيت جلسات التدليك والدهن والاسترخاء، وبقت لها جلسات الشك وشد الأعصاب.

حركت عينيها، أزالت ثقل أجفانها.. بحثت عن كتاب لتقرأه.. نفضت غبار ذهنها، وبدا إشعاع رائع لرأسها المثقل.. والكتاب جر آخر، فآخر.. لم يعد هو وحده زوجها المركز الذي تدور حوله.. تطورت اهتماماتها، عرفت المكتبات، وعرفت هوايات عدة، وعرفت

يدها مسك القلم، تعجبت بنتاها وقد بدأت تذاكر لهما وإن ضحكتا كثيرًا من أخطائها في قواعد اللغة العربية.

في انشغالها الجديد نسيت صبغ شعرها، فعاد له لونه القديم، وتركت أدوات التجميل، فأصبحت بشرتها أكثر إشراقًا وعينيها أكثر لمعانًا.. حركت يدها القلم، تحرك القلم ملأ الورق كلام جميل، توالت الأوراق، وألصقت طابعًا في ركنها الأيمن.. خفق قلبها وهي تشتري المجلة.. هناك وجدت اسمها في أقلام واعدة واستمرت حتى وصلت.. أصبح اسمها يكتب على غلاف المجلة، في خضم ذلك.. نسيت تتابع أخباره.. ولم يعد يهمها عاد أم لم يعد.. لكنه عاد فعلاً، لم يجد جسدًا بضًا.. وشعرًا مصبوغًا وحواجب مزمجبة، لكنه وجد امرأة أخرى.

١٨/٨/١٩٩٢م




قصص قصيرة جدًا جدًا
ابحثوا معي



ابحثوا معي

★ ★ فقدتــه.. ★ ★

استيقظت من النوم فلم أجده..

في كل مكان بحثت، تحت السرير، تحت المخدة، فوق التليفزيون، بين طيات شَعري، أحضرت مرآة مكبرة، فتحت فمي على آخره، حتى كاد ينقع لسانه الموت، ولم أجده كان يخرج جميلاً، أحيانًا معطرًا رخوًا، يحاكي العنادل، أحيانًا جافًا كأنما مضى ألف عام لم تمطر سماؤه.. حملت الهاتف أدرت رقم ٩ ثلاث مرات.. سألتهم عنه شتموا أجداد أجدادي وأغلقوا الهاتف في وجهي..

حزينة أنا حتى الموت.. ضاع مني.. ابحثوا معي عنه.

علامته الفارقة.. أنه هادئ كنسمة شمالية في ليل آب رطب، وقوي أحيانًا كرعد ليالي شباط مؤدب كصباح طفل معافى، شرس كعربي يعادي أخاه ابحثوا عنه.

كان قويًا كشاب، مهزومًا كشيخ عذبته سنين الفقر.

ضاع مني.. عندما تجدوه.. لا تعيدوه.. فقط أسمعوه صوتي..

★ ★ عندما يأتي الصباح ★ ★

جائع الشجر..

فتح أفواه كل أوراقه يريد الشمس..

لم يجد الشمس.. سأل النهر تثاءب النهر.. حاول أن يسمع الشجر صوته.. لم يسمع الشجر، نقيق الضفادع كان قويًا.

رفع النهر صوته أكثر..

قال: تأتي الشمس عندما يأتي الصباح..

انتظرت الأشجار كثيرًا، ثم هزت أغصانها فأقلقت عصفورة نائمة في العش منذ غربت الشمس آخر مرة.

الشجر جائع، الشمس لم تأتِ.. لم يحضر الصباح بعد حتى يعيدها والكل نيام، حتى الشجر عام للنوم بعد أن تجرد من أوراقه..

★ ★ فـــراغ ★ ★

حاولت أن أمسك بها فرشت لها قلبي ودثرتها بأجفاني.. لكني.. كلما حاولت أمسك جزءًا طارت أجزاء.. صحوت ذات صباح لم أجد شيئًا، طارت، حلقت في أعالي السماء، كالدخان حلقات حلقات، عندما ينتهي مذيع نشرة الأخبار، عرك عينيه، وسعل معتذرًا، ويفيد الأيام طارت، وأن التاريخ وجده مصلوبًا على شجرة لم يعرف أصلها.. لم أعد أحاول أن أقبض على شيء.. اعتادت يداي الفراغ.

★ ★ مالك الحزين والثعلب ★ ★

جاء الثعلب ذات يوم لمالك الحزين.. قال له يا مالك يا حزين.. من أين تعودت الحزن..

فرك مالك جناحًا بجناح، وقال بصوت متهدج.. لم أعرف يومًا غير الحزن..

ضحك الثعلب وقال: سأعلمك الضحك يا مالك الحزين.

مالك قال له: علمني، أنا أحب العلم..

قال له: ستأتي رياح قوية ذات الشمال ستدغدغ أحلامك.

قال مالك: ليس لي أحلام..

قال الثعلب متضاحكًا: لنفرض أن الرياح جاءت قوية، ماذا تفعل؟

قال مالك: أفرد جناحيَّ جهتها.

قال الثعلب: وإذا أتت من الجنوب.

قال: أفرد جناحي تجاهها.

قال: وإذا أتت من الجهتين.

قال: أعمل هكذا، غطى جسمه.. أكله الثعلب ولم تذع نشرات الأخبار تلك الوجبة التاريخية، حيث كان مذيعو الأخبار مشغولين بتسليك حبالهم الصوتية..

١٩٩٣/٩/٤م







لولو

إهداء إلى لولو

التي فقدناها



لـولـو

إهداء إلى لولو التي فقدناها

مقــدمة..

لولو مشرقة كوردة صباح ربيعي، كان اسمها في شهادة الميلاد لولوة، سحبت التاء المربوطة، فتحتها حتى بسطتها، استقامت كخط مستقيم، عملتها بساط ريح، صعدت عليها، طارت، قبلت الغيوم، وغنت للقمر.. عندما نزلت، نفختها فطارت، وبقيت لولو، تقفز، وتحجل، وتردد أناشيد صغيرة للفراشات ولأشعة القمر..

تفاحــة..

في البستان تفاح كثير، قفزت لولو بين الأشجار.. دخلت بين الأغصان، عندما دنت من تفاحة حمراء، قبلت التفاحة خديها فأصبح لهما لون التفاح الجميل.

غيمــة..

بللت غيمة ربيعية شعر لولو برذاذ من المطر ابتهجت لولو، نثرت شعرها، لفته يميناً، لفته شمالاً، مرددة أهزوجة للمطر..

عندما فتحت المدارس أبوابها، ربطت أمها شعرها بشريطين أبيضين.. لولو سحبت الشريطين.. أطلقت عقال شعرها ونثرته..

غضبت أمها وضربتها.. بكت لولو كثيرًا، سمعت الغيمة بكاء لولو صبت مطرًا كثيرًا، غسل دموع لولو، ثم غزر أكثر فأكثر فأغلقت المدرسة أبوابها. ضحكت لولو حتى غارت غمازة خدها الأيمن عندئذ ضحكت الغيمة وذهبت بعد أن طلعت الشمس لتقول للولو صباح الخير..

المعلمـــة..

في الدرس الأول، كتبت المعلمة على السبورة "ألف" خط مستقيم، كأنه أصبح الشاهد يتوعد.. رفضت لولو أن تكتبه في كراستها، المعلمة غضبت وزعقت، خافت لولو ورسمته، لكنها صنعت له بخيالها جناحين، طار بهما وخرج من شباك الصف، ثم أرسل لها عصفورًا صغيرًا، جعل ينقر على زجاج النافذة، عندما التفتت لولو إليه، حكى لها نكتة جميلة، ضحكت حتى كاد يغشى عليها، أخرجتها المعلمة من الصف.. وقفت عند العصفور وفَتَّتَتْ له شطيرتها.

عندما تكبر لـولـو..

قبلت لولو الوردة وهمست لها:

سأدعو ربي أن أصبح وردة حمراء عندما أكبر..

قالت لها الوردة: لا يا لولو.. حتى لا يقطفوك..

رفرفت فراشة جميلة، فسمعت لولو تقول: كم هي جميلة الفراشة. سأدعو ربى أن أكون فراشة.. وقفت الفراشة على ذراعها وقالت لها: لا يا عزيزتي، أعمارنا قصيرة جدًا، يحرقنا اللهب ويصيدنا الإنسان، وقد تأكلنا الزواحف. قبّلت لولو عنقود عنب، قالت سأدعو ربي أن أكون عنبًا، ارتج العنقود حتى كادت تنفرط حباته.. وقال لها: لا يا لولو، لا تكوني عنبًا، وإلا عملوك خلاً، قالت لولو: يا رب لا تدعني أكبر.

علبـــة حلـوى

حصاة مربعة تناولتها لولو.. عند باب البيت خطت مربعات وأخذت تحجل دافعة الحصاة بقدمها اليمنى.. يسألنها صاحباتها أن يلعبن معها.. فرحبت بهن، كبرت اللعبة.. رآهن الأولاد، ضربوا لعبتهن وفرقوهن.. أمسكت لولو الحصاة.. رمتها، شجت رأس أحدهم، عندما انبثق الدم راعها ذلك فأغمي عليها..

مساءً أقبل والد الصبي، ليس ليشكوها، لكن ليقدم لها علبة حلوى..

حفـل نجـاح..

لولو نجحت.. قررت أمها أن تكافئها بحفل نجاح.. دعت زميلاتها وصنعت لها حلوى وبسكوتًا وكعكًا، زينت البيت..

حضرت الصديقات بحثوا عن لولو في كل مكان وأخيرًا وجدوها.. في بستان التفاح تقاسم أبناء الفلاح أكل البسكوت.



عصافيــر..

حكت لولو لأمها حكايات قالتها لها العصافير، أن الأرض ستخضر، فالربيع قادم، وعروق الشجر تتحرك، وستنتشر أوراقها، حيث ستبني العصافير أعشاشًا جديدة، تملؤها فراخًا، وستنشق الورود عن أكمامها، حيث ستنقلها لولو لدفتر الرسم..

وقالت لها العصافير أيضًا.. إن النحل سيعمل جيدًا، ويصنع أقراصًا من عسل جميلة صفراء بلون الذهب، وأرشدت لولو كيف تصنع من خلاياه شمعة كبيرة توقدها عندما يغفو القمر، ضحكت أم لولو كثيرًا وقالت: سيكون لك شأن في التأليف يا لولو.

لكن لولو أقسمت إنها صادقة.

ام وطفــل وشجــرة..

أخذت لولو ألوان الرسم..

امتدت يدها لورقة بيضاء. رسمت شجرة وأمًا وطفلاً.. نام الطفل على ذراع أمه، واتكأت الأم على جذع الشجرة ونامت.. نظرت لولو فرِحة إلى رسمها..

مرت طائرة سوداء في الجو.. أفاق الطفل فزعًا بكت الأم واحترقت الشجرة..



التلفـــاز..

نهضت لولو من نومها.. وجدت ساقيها قد طالتا جدًا جدًا.. مسكت سقف الغرفة بيدها، رفعته.. رأت النجوم والغيوم قريبة جدًا، جلست على نجمة، تدلت رجلاها.. لفت النجمة بها حول الكرة الأرضية.. رأت أشجارًا وأنهارًا، ورأت طرقًا وعمارات.. ثم رأت جنودًا مدججين بالسلاح يفتشون أطفالاً سودًا حفاة عراة، كأعواد الكبريت.. شهقت سقطت من فوق النجمة..

وجدت نفسها في صالة منزلهم جالسة قبالة التلفاز.

دوران..

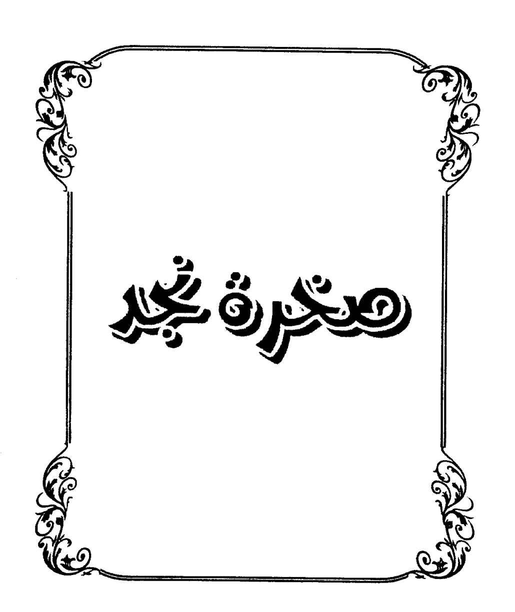
دارت الشمس كثيرًا، ولفت الأرض مرارًا، ولولو ترسم قرص الشمس أصفر شاحبًا، أرجوانيًا غامقًا أحيانًا، وأصفر مزرقًا أحيانًا أخرى.. تنظر للغيمات.. تصنع منها أسِرَّة ترقد فوقها أو لوحات لأساطير تتخيلها.

حتى صحت ذات يوم على إصبع الشاهد أمامها.. تحذرها أمها من الوقوف بالشباك، واللعب بين أشجار التفاح، والكلام بصوت عال، والنشيد مع العصافير.. لم تعد تاء التأنيث لآخر اسمها، لكنها عادت تدور حول رقبتها.

١٩٩٣/٩/١٠






صخرة نجد



جدته عند جدتي أو جدتي عندهم، هكذا يوميًا في زقاقنا الضيق كل الأولاد يلعبون، أقف مستندة على الجدار يعطيني كعوبته أجمعها لدي، تأخذني نشوة الفرح كلما فاز، أعبِّر عن ذلك أحيانًا بأن أنثر شَعري الطويل.. يملؤني الغضب عندما يتشابك مع صبي آخر في عراك، دائمًا أنجده دون أن يشعر، أحيانًا أمد رجلي للولد الآخر فيقع وينتصر هو، أحيانًا أعدو مسرعة؟ لأستنجد بجدته التي تضع عباءتها كيفما اتفق وتأتي.. وقد أبتعد في بعض المرات لأتناول حجرًا أقذفه فيصنع لغريمه نافورة دم.

"لا مُطَوّعَة بعد اليوم" صدر أمر جدتي، لم يعترض أبي واستسلمَت على مضض أمي.. فرحتُ، فأنا أصلاً متأخرة جدًا بالحفظ وتلتهب يداي وقدماي من عصا المطوعة.. لكن الأمر لم يقتصر على المطوعة بل شمل الخروج ككل.. طفلة التاسعة في داخلي راعها الأمر.. سألت الجميع: لم لا أخرج!! عُدِّدَت لي أسماء كثيرة، بنات عمومتي وأخواتي اللواتي سبقنني في الجلوس في المنزل، إنهن يتعلمن كيف يصنع الخبز، كيف تحلب البقرة والعنزات.

أتحين الفرصة لأبقى أطول مدة في قليبنا المشترك معهم.. لم أكن أريد أن أكلمه، كنت فقط أشتهي أن أسمع صوته، لأني أظنه كان أقوى المحظورات وإن لم يصرِّح لي أحد بذلك – كنت أتمنى أن أسمعه

ينادي أمه يطلب سنانًا أو منشفة.. ويطير بي الخيال أحيانًا فأظنني أسمعه يغنّي لي..

قلت لأمي ذات يوم ويداي ترتجفان محاولة أن أصنع خبزة كرغيفها:

لماذا البنات في التاسعة لابد أن يجلسن في البيت.

قالت: لأنهن كبرن.

قلت لها: لم أكبر بعد.. انظري.. لفت حول نفسي سقط مني الرغيف.. ضحكت أمي وقالت: جدتك بعمرك تزوجت.. قلت وأنا أتخيل الثياب الجديدة والحناء بكفيّ وقدميّ، وفوق كل هذا حريتي لا أب يصرخ ولا جد يمنع: إذًا زوّجوني.. قالت أمي وهي تغالب ضحكاتها: عندما تصنعين خبزًا كهذا أزوجك..

نظرت لرغيفها وقلت لها: حصة تصنع خبزًا جميلاً ولم تتزوج – حصة ابنة عمي – اكفهر وجه أمي ولم تجب.. وكانت حصة قد أخذت طريقًا للعنوسة.. فهمت فيما بعد لِمَ لَمْ تتزوج حصة.. أمها جارية اشتراها عمي لتساعد في البيت الكبير.. عندما وضعت زوجته طفلها الخامس كان عمي قد بذر حصة.. لذا فابن العائلة الكبيرة لم يكن يتقدم وغيره لا يمكن تزويجها إياه..

قُبيل صلاة ظهر كل يوم أذهب للقليب[1].. أضع أذني على الجدار.. وصلتني أصداء صوته.. الفرح يملؤني.. أنظر للمحالة[1]

(١) القليب: البئر

وهي تدور وتدور حاملة دلو الماء له.. أشتهي أن أضع قدمي الضئيل به.. عقلي الصغير يفكر.. كيف أُشعره بوجودي؟.. أأرمي حجرًا؟.. لا أفضل أن أجر الرشا[٢].. قهقهة طفولية تعربد بصدري الصغير الذي بدأ عصفوراه يشقان الجلد.. أُحضر عصا جدي وأجر الحبل.. أسمع بعدها تمتمة.. أعيد الكرة.. أعيدها.. ثم أخيرًا يجر لي الحبل، أقفز مهللة.. لقد بدأت إشارتي تلقى صداها.. وأوجدنا لغة خاصة بنا.. نتكلم ونقهقه نغني أيضًا.. لا صوت يسمعه أحد فيؤذينا ولا يمكن أن يرانا أحد فيفشي سرنا.. لكن الحبل أعياه حمل الرسائل ولغته ضاقت مفرداتها بنا.. لذا بدأنا البحث عن وسيلة أخرى..

في القيلولة عندما تمطر السماء لهبًا.. العيون الكبيرة تغفو في السراديب الباردة وبجانبها المراوح الخصوصية.. كنا نصعد للسطح.. يرمى حجرًا صغيرًا أجيبه بمثله.. ونبتديء حوارًا طويلاً..

"البنت تصعد للسطح ظُهرًا.. البنت.. البنت تصعد للسطح"..

رددت جدران منزلها الصدى واهتزت له سعف نخل بيتنا.. أقسمتُ وكل قطعة مني ترتجف "إني أنشر الملابس" "إني أطعم حمام إخوتي" لا أحد يصدقني.. ومُنعت من الصعود للسطح ظُهرًا..

في الليل أترقب النجوم، أعدها.. يفصل بيني وبينه جدار.. أرهف السمع.. كل شيء خواء.. ولا حتى سعلة أسمعها.. جدته لا زالت تأتي

---

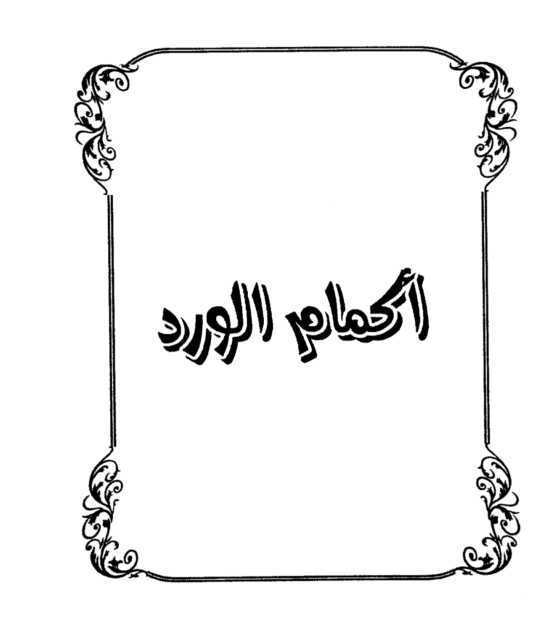
(١) المحال: بكرة توضع على البئر
(٢) الرشا: حبل لجر الدلو

لجدتي.. أتمنى أن أختبئ في حضنها، أن أسألها عنه – وأن أسمع منها أخباره "البنات لا يجلسن مع الكبار".. أمر آخر.. أنسحب وشيء ما يجثم على حنجرتي قالت حصة وهي ترمقني: يقولون ذهبوا للشام وهناك أبواب كبيرة للرزق.. إنهم يعملون أي عمل..

الرابعة عشرة.. هال أمي كيف وصلت بسرعة للرابعة عشرة.. تنظر لي نظرات أعرفها جيدًا.. إنها تعد العدة لكلام تقوله..

أقترب منها تسر لي، أبوه عند أبي، إنهم يطلبونني.. الفرح يزغرد في ثنايا قلبي.. إذن عاد.. الليل يتلوه نهار.. أمي تتحاشى النظر لي.. ألتصق بها.. تقول إنهم سيعودون للشام.. لقد صار أمر جدي، فأنا صخرة من نجد لا تترنح.

٥/٦/١٩٨٠م


أكمام الورد



لأسبوع كامل والكآبة لم تفارقها..

العبارات ترتطم برأسها، بعضها بالبعض الآخر، تحدث أصواتًا لارتجاجات لا حد لها يا الله..

كيف مضت السنون بهذه السرعة، ستون؟.. ما أسرع أيام العطاء ربما تمنّت أيامًا كثيرة أن ترتاح، بعد جدال مع رئيسة أو بعد إرهاق لا حد له لكنها لم تمل العمل.. عشقته عشقًا تغلغل في وجدانها عندما يأتي الصباح تشرق أزاهير حبها، تمضي لعملها والفرح يسبقها كأنها تُزَف لأروع عاشق تتبادل تحيات الصباح، مع زميلاتها ورئيستها وأكثر شيء مع هؤلاء البنات، وتندمج بعملها الرائع حيث تتفتح أكمام الورود أمام ناظريها..

للمدرسة المتوسطة حب لا يعادله حب آخر، جربت مدارس الابتدائية والثانوية، وحتى محو الأمية لكن المدرسة المتوسطة تبقى هي حبها الفعلي..

ترقب تلك الصغيرات وهن يتحولن شيئًا فشيئًا يعبرن السلم إلى الأنوثة تحب صخبهن وانفعالهن. وتلك النظرة الحَيِيَّة في وجوههن الغضة تملأ قلبها، وشيء كتكسر الزجاج يكاد يشق صدرها، ستون كيف مرت وما شعرت بها.. لم تحتج لمرآة لتذكرها.. فالإرادة العليا تذكرت ذلك بسرعة كبيرة وبعثت بخطابها لها..

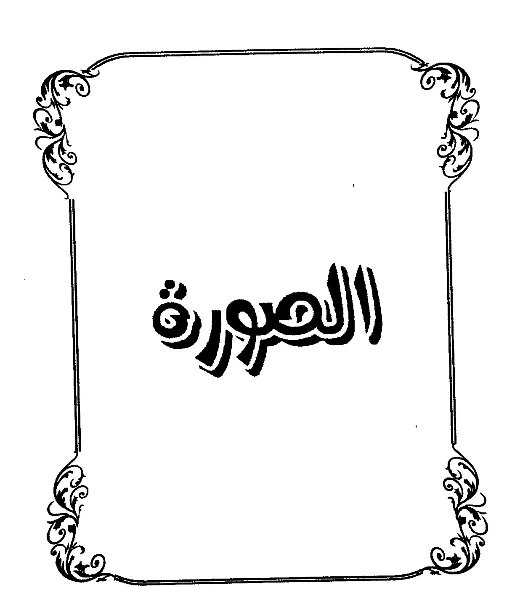
قلّبت أفكارها..

ستصافح جمعًا.. ستلقي كلمة.. ثم يتناول الجميع على شرفها طعام العشاء وبعد.. ثم ماذا؟

كل واحدة ستذهب لبيتها.. ودموع في مآقيها ثم تحدّث زوجها عن الحفل، وتنام وهي مرتاحة البال.. إلا هي.. كيف ستمضي تلك الليلة الآتية حتمًا.. الهاتف.. آه لديها هاتف يدق لقد كادت تنساه لكنه يضج.. ترفعه دعوة للعمل في بنك.. تعتذر برقة تعلمت التعامل مع الأنفس لا مع الأرقام، ثم دعوة أخرى للعمل في مشغل اعتذرت ثم أغلقت السماعة، وكادت تشهق بالضحك، مشغل أبَعد كل الجمهور الصباحي مشغل..

والليلة الموعودة تأتي.. تمر على جميع المقاعد تحيي كل الوجوه المألوفة والمدعوة تشكرهم بحبور طاغ، ثم تلقي كلمتها.. تنهال العبرات شاقة صدرها فلا تستطيع أن تمنعها ويضج الجمع معها.. محبوبة هي من الكل وتحب هي الجميع في السرير يهرب النوم فلا تطارده.. تتركه يعشش في عيون كثيرة.. وتواصل هي حلمها في مدرسة متوسطة حيث تتفتح أكمام الورد.




الصورة



تغنّي عشقًا بنفسه..

عشقها عشقًا لا حد له..

صباح مساء ينظر للمرآة.. يكاد يقبّل صورته يبتسم، يكلم الصورة ويصفِّر أحيانًا كثيرة إعجابًا بطلعته.

أغلى الملابس وأجملها كان يختار، أنامل أمهر الخياطين تفصل له، روائع العطور وأثمنها كان ينثرها على وجهه ويمسح بانتشاء صدره..

لم يُعرف إلا متأنقًا، معطرًا لم يشذ يومًا زرار عن موقعه، ولا عتقت خيوط الذهب أو احمرت في عباءته، إذا تكلم، فالأفواه تعلوها دهشة لعباراته.. متأنق العبارة والحروف والكلمات كأنه يكوي الحرف وينشيه قبل أن يجمعه ليصبح كلمة.. فتخرج عباراته باقات ورود.. نسقتها يد فنان رائع، لا يمكن أن نقطع أن الكل يحبه ولكن، الأغلبية تعجب به ربما تنظر إليه كما كان يُنظر لنجوم السينما السابقين في أيام عز السينما، كلما كبر، كبر منصبه، وكلما كبر منصبه ازداد إعجابًا بعقله وذكائه وصورته المنمقة في المرآة وازداد أيضًا عشقه لنفسه، كبر حتى بات يرى أنه أكبر من زوجته الأولى أم بنيه، وأن أنسابه لم يعودوا يستحقون مصاهرته فتزوج امرأة جديدة تليق به ورأى أن أبناءه الأوَل لا يشرفونه.. فأنجب أبناء يفتخر بأخوالهم لا يثرثرون كثيرًا ولم تدبق أيديهم من أكل التمر واللبن.

كبر على أبيه فجنسة المشراق لم تعد تعجبه.. وترديد شعر ابن لعبون والقاضي سئمته أذناه.. لو لم تكن أمه قد توفيت منذ زمن طويل لعجب كيف يكون ابن تلك؟ وكيف يمكن أن يخرج اللؤلؤ من المحار؟

أيعقل أن يكون ابن تلك التي تشققت قدماها، واخشوشنت يداها من الطبخ والخبز، حتى الزراعة شاركت بها، وبناء بيتهم الطيني واضحة لمساتها بها.. كبر وكبر، أثناء كبره داس على أناس كثيرين وتسلق أكتاف آخرين.

في صباح خريفي جلس مزهوًا بمقهى في الشانزليزيه بباريس.. أزرار قميصه ماسية تلمع وقلمه الثمين يطل من جيب سترته الراقية.. أما ساعته فأحجارها الكريمة الكثيرة تكاد تحجب توقيتها..

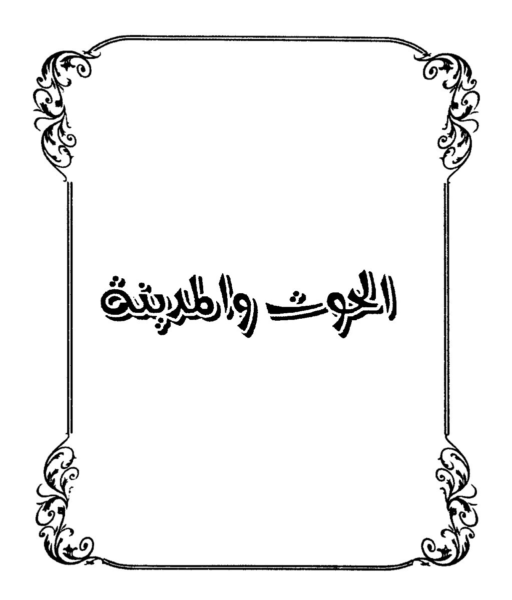
قرب منه رسام، طلب أن يسمح له برسمه مقابل خمسين فرنكًا.. ابتسم بانتشاء.. سحب نفسًا من سيجار الهافانا.. وأومأ "نعم".

جلس أمامه الرسام.. وراحت الريشة تعمل، كلما رسم.. كلما استنكر صاحبنا الصورة.. صورة يراها قبيحة لنفسه سأل صديقه.. أتشبهني.. رد عليه، كأنها التقطت بالكاميرا.

نقد الرسام الخمسين فرانكًا.. حمل الصورة وكأنه حمل جبالاً.. دخل غرفته بالفندق، تأمل الصورة جيدًا.. خلع ملابسه وجلس أمامها لا ليست شكله، نظر لنفسه في المرآة.. هاله شكله كم هو دميم.. وكيف لم يشعر بهذه الندبات التي تملأ وجهه أنكر الصورة وأنكر

انعكاس المرآة، أشعل سيجارة وراح ينفخها يتبع الدخان وهو يرتفع مكونًا حلقات.. حلقات، حلقة ببطن حلقة.. تتداخل الحلقات تذوب.. جر الورقة الشفافة التي تغطي الصورة في أعلاها دبوس يربطها بالصورة بعنف ولج الدبوس في إبهامه.. سال دمه على وجه الصورة نقطة، نقطة، كبرت النقط في عينيه.. حتى رآها نهرًا من دم.. ارتجف جسده كله سقطت السيجارة لتلقي بالستائر ويختنق بالدخان، وتبقى صورته وقد غطاها عند الوجه دم جامد اسودَّ فيما بعد..




الحوت والمدينة

حوت أسود.. ظهر في الأفق.. كبير لا تستطيع عيناي أن تحيطا به كله.. مقدمته كنت أراها.. أكثر شيء أراه بوضوح فمه.. كان فاغره وأميز أسنانه الكبيرة المنشارية..

يقترب حثيثًا باتجاهي..

تفصد العرق متصببا من كل أنحاء جسدي.. فززت من غرفة النوم، ورعشات تملأ جسدي.. شيء يعصر قلبي حتى يكاد يقطعه إربًا.. صورة الحوت الأسود تحيط بي من كل جانب.. وسبحاته العجلى تجاه الشاطئ.. حافية كنت، الرمل كان ساخنًا إلى حد الكي، تألمت قدماي في البداية، ثم تحجرتا حتى أصبحتُ أجرهما جرًا..

من الجهة الغربية ظهر، هائلاً، ضخمًا، أسود.. حجب أشعة الشمس رغم أنها في كبد السماء كانت.. المؤذن كان يستعد لإطلاق نداء الظهر.. نادى "الله أكبر" الأولى ثم شهق وصمت الظلام يغطي كل شيء.. وفززت أكاد أغرق بعرقي.. "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب الدنيا وما فيها".

حدثت زوجي وسط رجفات رعبي.. مسح جبيني، أحضر ماء وقطر عليه قطرات ماء ورد وزعفران..

أسقاني إياه وهو يتلو آية الكرسي.. ونصحني بالامتناع عن رؤية نشرات الأخبار.

في الليلة التالية شاهدته يقترب..

في الليلة بعد التالية رأيته يقترب أكثر يكاد يحاذي الشاطئ. قررت أن لا أنام.. أصبحت أخشى إغماضة عيني.. قرأت صورة الكهف وآل عمران.. ياسين والمعوذات شربت قهوة مرة، صببت الماء البارد على رأسي.. هربًا من وسن يطبق علي.. ولكنه سلطان كما قالت أمي ذات يوم.. وجدتني أنام.. وهو يزداد اقترابًا.. وأنا أزعق بأعلى صوتي.. "إنه حوت لا يرحم الناس.. قادم سيبتلعنا جميعًا كبارًا وصغارًا.." لم يسمع أحد صوتي حتى تقطعت كل حبالي الصوتية.

ومع من ابتلعه الحوت كنت.. مع المساجد والشوارع والأسواق.. وكل بيوتنا شرقيها وغربيها بشمالها وجنوبها أحسستني ببطنه، ورائحة قيء فظيع تحيط بي.. قلت لنفسي، هذه بداية عصارات معدته، لابد أن ننتظر الطحن..

عجب كثير بفجعتي، الجميع يمارس حياته بعادية تمامًا يبيعون ويشترون ويتزاوجون.. الذي أثار غرابتي، أنني لم أصح، ولم يحاول زوجي إيقاظي.. لحق بي وسط بطن الحوت..

جميعًا تأقلمنا معه.. أصبحت أمشط شعر ابنتي وأذاكر لها الـ سائد.. أذهب لعملي.. لم يعد زوجي يغلق التلفاز عن نشرات الاخبار.. ولكني فعلاً لم أستيقظ من نومي.. أحد لم يوقظني.. أحد لم يصح حتى يوقظني.. ورائحة القيء أعتادها.. أعتادها..

١٦/٩/١٩٩٢م



النمل الأبيض

-١-

حلمَت أنها تنام على رجل جدتها، كانت الجدة تحكي لها كعادتها حكايات الأساطير والأبطال، حكت لها عن بساط الريح.. البساط كان يطير ويطير، طارت هي فوقه.. مرت على قومها..

رأت موائد طويلة عريضة.. كان بعض قومها يأكل البعض الآخر.
حزنت.. خافت..
تصببت راحتا يديها عرقًا.

حاولت أن تصرخ، ذهب صوتها أدراج الرياح.. لم يكفهم أنهم يأكلون لحمهم، عزموا أناسًا ليشاركوهم الوليمة..

ضاع صوتها..
بكت.. نزفت كل دموعها.. حتى لم يبقَ إلا الدم فسفحته..

سقط دمها على قومها.. "حمر" كلهم أصبحوا، لكنهم يسيرون، يأكلون، يتناسلون، ولا يعلمون أنهم "حمر" قد أصبحوا..

-٢-

ذات يوم عادها الحلم..

على حجِر جدتها العمياء ترقد.. الجدة تتحسس شعرها.. ونامت في الحلم، لتركب البساط، البساط يمر على مدن وبلدان.. مرت على تمثال



الحرية.. وجدت شعلته تمتد لتحرق كِسرة خبز بيد طفل إفريقي.. الطفل كان يصرخ، يريد الكِسرة..

التمثال يخرج من بطنه عساكر، يزعجهم صوت الطفل، أحدهم يخرج بندقية، يدخلها في فم الطفل ويخرسه للأبد..

يخرج علكة يضعها في فمه، يمسح يده بجانبي بنطاله.. يقعد مرتاحًا.. تنتفخ العلكة في فمه، يفجرها بصوت قوي، يهزها، تسقط والبساط تجد نفسها بالفراش مبللة بالعرق، ومن جوفها يندلع حريق..

- ٣ -

قصت حلميها: الأول والثاني على زوجها، ضحك حتى كاد يستلقي على قفاه، وقال: يا "منى" كاريكاتيرية، أنصحك أن تحلمي أن الطفل تحور لنملة سوداء سامة، تعض قدم الجندي فيموت.. أكمل ضحكته، أما هي فلم تعلّق، لم تقل له إن الطفل لم يتحور إلى نملة، وحتى لو تحور لن يستطيع النفاذ لقدم الجندي.. إذ سيسحقه بحذائه المتين الضخم..

- ٤ -

عندما زارها والدها، ناولته فنجان القهوة المرة، رأى ذبلة خديها وانكسار عينيها.. فقصّت عليه حكاية حلميها، قرأ عليها سورة ياسين والمعوذتين، ونصحها بالابتعاد عن التفكير بهما.. وقراءة كتب مفيدة، وأن لا تنسى تلاوة آية الكرسي قبل النوم..



التزمت نصيحة أبيها، فقرأت كتب التاريخ والجغرافيا وعلوم الاقتصاد، عرفت منابع الأنهار ومصابها، ومتى تزخر السماء بالغيوم، ومتى يتفتح الورد.. عرفت كيف تتابع الأنواء الجوية بالمذياع، وكيف تسمع طلبات المستمعين، عرفت أيضًا متى تفلح الأرض، وأي الأوقات أنسب لزراعة القمح وغرس الفسيل.

ظنت أنها نسيت الكابوس، لكنه لم ينسها.. كان يوم، نامت فجأة على سجادة الغرفة.. فكان الحلم الغريب، لم تكن ترقد على حجر جدتها، ولم تر البساط إنما كانت تضع رأسها على صخرة صلدة كالجلمود..

من الصخرة يخرج نمل أبيض، النمل يدخل رأسها، عبر فمها، عبر أذنيها، وعبر عينيها، يعشش في الداخل، ثم يبدأ بالتهام عقلها قطعة قطعة..

- ٥ -

" بسم الله الرحمن الرحيم "

" لا حول ولا قوة إلا بالله "

فزعت تريد أن تطرد الكابوس.

لكنه لم يطرد..

طبت على رأسها ماءً باردًا، ثم ماء حارًا.. ثم باردًا.

حضر زوجها، وجد الماء يملأ الصالة.. وكانت في داخل المغطس، سألها أن تكف عن العبث.. قالت له إنها لا تعبث، ولكن النمل الأبيض يأكل مخها الآن.. وهي تريد أن تخرجه..

لفها بالمنشفة، ألبسها ملابسها، حاول أن يطمئنها، أن يفهمها أن ما رأت ليس سوى كابوس، لكنها لم تفهم..

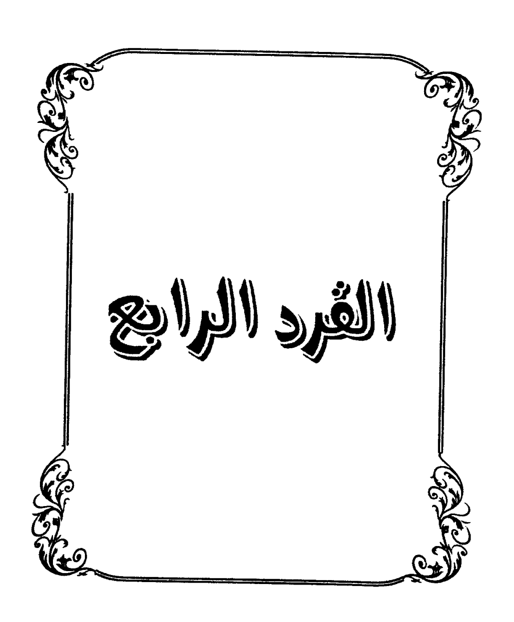
لم ينفع الشيخ الذي أحضره، ولا المحو[1] الذي أسقاه إياها..

لا زالت تصر أن النمل الأبيض يأكل كل ما فيها.. لم يعد يكفيه مخها، بل قالت: انظر إنه يأكلك!!!!

٣/٤/١٩٩٤م



(١) عرفت عادة المعالجة بكتابة آيات قرآنية بالزعفران وماء الورد على صحن أبيض، ثم يصب عليه ماء فيشربه المريض.


القرد الرابع



الهيبة والرهبة تملأ جوانحي.. وهو وسط الساحة.. يرتجف قلبي يكاد ينخلع من بين ضلوعي.. ننتظم طوابير، وهو "المدير" يتفرس بنا وسط الساحة..

كل صف أمامه يقف المدرس بعصاه الطويلة الرفيعة.. وخلف الصف يقف العريف.. تكاد تسمع أصوات تنفسنا الذي نجاهد حتى يكون بأضعف صف..

هس، ولا كلمة.. فقط نسمع ما يقوله المدير وما يردده المدير.. نمضي لفصولنا.. يلتفت بعض الطلاب، ويهمس بعضهم للآخر.. إلا أنا.

يتيم رُبيت.. هس من الخوال، وصه من الأعمام.. تعودت أن أكتم الحروف داخل حنجرتي.. أحسها أشواكًا أو شفرات أمواس، ثم.. تعودتها.

في الفصل كان يقف المدرس.. يشرح ويقول ويقول.. وعلينا أن نسمع فقط ما يقول.. لا لغط الشارع ولا زعيق السيارات ولا حتى صوت صفارات سيارات النجدة.. انتباه يا أولاد انتباه.. وأنا منتبه حتى آخر عصب في جسمي.. وتعودت أن أصغي للمدرس وأسمع كلامه وكلام المدير لا غير.. وعندما يصرخ المدرس "لا تسمعوا غير كلامي" أكون أنا التلميذ المطيع المنفذ فعلاً.

وصهقت أذناي.. فكل الدنيا هدوء، هدوء، عدا أصوات المدرسين والمدير والأخوال والأعمام، وكلها أوامر وأنا التلميذ المطيع..

وكبرت وكبر معي ذلك التلميذ.. لا أقرأ إلا ما يجب أن يُقرأ، ولا أسمع إلا ما يجب أن يُسمع، وأنفذ ما يطلبه الرئيس فيما بعد سواء كان رب عمل أو أب زوجتي..

وتعودت تنفيذ الأوامر.. وحل كل الواجبات المطلوبة لا شيء غيرها.. أكتب، أحفظ، وأردد..

عندما زعق المذيع يردد نشرات الأخبار، وأقسم المعلق أنه يقول الحق، ودعاني أن أنظر فقط لما يراد وأن أغلق عينيّ عمّا لا يُراد.. ثقلت أجفاني، وثقل ما بين شعري وعيني.. واكتفيت بما أرى فقط ولا غير..

زُرت صديقًا ذات يوم.. رأيته يضع فوق تلفازه تمثالاً لثلاثة قرود:

الأول، أغمض عينيه وترك فمه وأذنيه..

الثاني، سد فمه وترك عينيه وأذنيه..

الثالث، أغلق أذنيه وترك عينيه وفمه..

وجدت أنني رابعهم أنا الذي أغلقت عيني وفمي وأذني أيضًا تكورت على نفسي حتى تقردنت.

١٩٩٢/٢/١م




كويتي



اسمه يخطئ به الكثيرون، فمرة يُلفظ "جويني" ومرة يكتب "كويني" ومرات عديدة "قويني"..

خالته وعماته، أسرته وأبناء حارته القريبون يلفظون اسمه كما دعته أمه.. (كاف كالكاف الأعجمية وبعدها واو مفتوحة مشددة ثم ياء ونون وياء في الآخر) ولاسمه قصة..

سبع بنات رُزقت أمه، جميلات كالأقمار، كلما حملت دعت ربها أن يكون الحمل ذكرًا، لكنه يأتي بنتًا، بناتها دمهن معجون بتربة سمراء، لكل واحدة غمازة جميلة في أحد خديها.. عيونهن وطفاء واسعة تتلون أحيانًا بلون دبس مدينتهن، وأحيانًا تدكن بخضار عجيب، وكأن شاعر مدينتهن وصفهن بقوله:

"عيناك غابتا نخيل ساعة السحر.. أو شرفتان..

راح ينأى.. عنهما حين تبسمان تورق الكروم وترقص الأضواء..

كالأقمار في نهر..

يرجه المجداف.. وهنًا..

ساعة السَّحَر..

كأنما ينبض في غوريهما النجوم.."(١)

---

(١) مقطع من قصيدة أنشودة المطر (لبدر شاكر السياب).

رغم حلاوة البنات وخفة دمهن، وأجسامهن الممشوقة كضباء الصحراء المحيطة بالمدينة غربًا، كانت حسرة الأم كبيرة على إنجاب ولـــد..

حقيقة هي حملت ثلاث مرات بولد.

الأول أسقطته في الشهر الخامس، بعد أن مات أبوها فبكت عليه بكاءً مرًا، وناحت نوح يمام حزين، فعافت نفسها الطعام والشراب أيامًا فكان أن سقط الجنين إذا به ولد.

الثاني أتمّ أشهره التسعة، وكانت قد نذرت إن ولدت صبيًا تصوم شهرًا عند طهرها من النفاس، وتطعم فقراء المدينة خبز تنورها، لكن الصبي ولد ميتًا، ولزمها النذر كما أفتى إمام المسجد لها.. ولأنها لا تطيق الصمت، فكانت تخبز الخبز وهي تبكي وتغني بآن واحد:

"قاعدة عالباب تصرخ..
يا لطيف..
لا مجنونة ولا عقلي.. خفيف..
من وراء التنور
تناولي الرغيف
يا رغيف الحلوة.. يكفيني سنه.."[1]

---

(١) مقطع من أغنية لناظم الغزالي

وثالثهم كانت قد حسبت خمسة شهور حمل، عندما دخل تيس الجيران لبيتها فجأة، اتجه لها نطحها على بطنها، وكأنه مرسل لذلك الغرض.. أسقط الجنين الذكر وناحت عليه كثيرًا.. تخاصمت مع الجيران أسبوعًا ثم لم تستطع صبرًا، صالحتهم، وبعثت لهم "كليجًا بالتمر".

ولنعد لقصة اسم "كَويني"..

عندما حملت به نصحتها إحدى جاراتها إن وضعت طفلاً ذكرًا تدعوه اسمًا غريبًا جدًا، ذلك كي لا يعرف الموت طريقه، فالموت يأخذ الإنسان والحيوان والنبات لكنه لا يأخذ الأشياء.. ومن الأشياء الخيش الذي يدعى بلهجة مدينتها "كَواني" فنذرت ذلك..

عندما وضعته كان صغيرًا فسمته "كَويني".. رفض مسئول الجنسية تسجيل اسمه الغريب، قائلاً إنه لا يعرف كيف يكتبه.. لفت له عشرة دنانير، ودستها في يده وقالت له:

اكتبه كما تشاء لكن لن أغير اسمه...

كبر "كَويني" صار عمره أربع سنوات.. تخاف عليه من الختان فيضعف ويوهن، لكن القوم نصحوها باستعجال ختانه إذ كلما كبر سيتألم أكثر.. كان يوم طهوره يومًا مشهودًا. أحاطته بآيات الرحمن.. وعلقت مصحفًا صغيرًا على صدره وعلى رأسه وضعت خرزة زرقاء.. صوان أمام البيت أُعِدَّ، وكانت ليلة أحييت بالذكر الحكيم حتى الصباح، ونُحر عجلان..



صار في السابعة، حان وقت الذهاب للمدرسة.. موكب جميل سار يتألف من البنات وأمهن، الأب وكَويني بالوسط كل منهما معتمر كوفية عقالاً.. في المقدمة كان عيسى الطبال وعبد الصاحب الزمار يضربان ألحانًا مختلفة، مر الموكب على أزقة المدينة وجمع صبية كُثار في طريقه، عند باب المدرسة كان المدير والمدرسون والطلبة في استقباله..

كَوينى كبر.. تعثر في دراسته مرات، وفاز مرات.. صار له شارب أخضر.. وبدأت شعيرات سود تنمو في لحيته حين ترك المدرسة في الصف الثالث المتوسط..

جاء يوم..

استلم "كَويني" أوراق الجندية.. كعادة الأمهات يزغردن عند ذلك، زغردت أمه وكأنها ديك يذبح.. تجبرت بالله واعتصمت بآياته تتلوها ليل نهار، أن يبعد "كَويني" عن الجهة الشرقية.. راحت تنذر النذور للرحمن "قعود موسم[1] إن سلم كَويني" وقفت النار شرقًا، وعاد للسماء صفاؤها، عدا اللون الوردي الذي اعتادوه جنوبًا.. أوفت أم "كَويني" بنذرها.. نُحر قعود الموسم وأكل من لحمه الجيران وجيران الجيران، من فاته اللحم لم يفُتْه المرق..

---

(١) هو صغير البعير الذي تغذى جيدًا في موسم الربيع



كث شارب "كَويني" جسمه الممشوق ملأ البدلة النفطية اللون، الفرحة تغطي على وجه أمه.. وبنات الجيران بدأ يدخل حساباتهن..

وكان يوم غاب به القمر، أُخذ "كَويني"..

صعدت أمه للسطح.. أزالت غطاء رأسها، جرت جديلتها، وفتحت جيبها.. بكت مر البكاء ودعت ربها أن يعيد لها ابنها سالمًا، نذرت أن تذبح كل ما تملك من بط ووز، أن تبيع خواتمها والدبوس الذهبي في شيلتها وتتصدق بثمنها عندما يعود "كَويني" لم تمطر السماء رعبًا كما أمطرت في تلك الأيام.. شيء لم يحدثه تاريخ ولا حكته روايات.. هي القيامة تقوم في كل شبر..

لم يهمها أن تموت أو تحيا.. همها "كَويني" بعيد قريب.. بخندق تبرز منه بندقيته تحيط به أكياس الرملة.. يقتاته الجوع والبرد والخوف.. الأرض نار، والسماء نار.. والليل يواصل النهار.. والخنق والحقد يمطر من كل صوب.

ومثلما احتار الكثيرون في نطق اسمه، احتاروا في مماته، بعضهم قال إنه مات أثناء الانسحاب عندما رمتهم الطائرات، يسمع طياروها الأغاني الجميلة، ويقولون بفرح إنه يصطادونهم، كما تصاد السمكة في برميل، في المقدمة سيارات الجند تكتلت، فتصادمت بها السيارات الأخرى.

البعض الآخر يقول إنه مات عطشًا وبردًا..

وبعضهم يقول إن جرافات كبيرة أكبر من أن تؤثر بها بنادقهم الهزيلة جرفت عليهم الرمل أحياءً، فماتوا وطُمروا للأبد..

ساعاتهم لم تصل لذويهم، ولا بقايا أشيائهم، ولا كلمات بالصدر لم تنطلق.. ولكن وصلت ريح سموم[١] محملة بأرواحهم..

أم "كَويني".. تملأ شوارع المدينة العتيقة لوعة ونداءً تسير إلى النهر الكبير، تهمس للضفادع والطحالب[٢]، بسؤال مر (أرأيتم "كَويني"؟).. عندما لا تجاب عليه.. تجمع الطمي تضعه على رأسها وتصرخ صرخات تشق الأفق.. "كَويني".

الذي يعرفها يبكي لحالها، ومن لا يعرفها يعجب لهذه المجنونة التي تبكي من أجل خُبيشة..

٢٥/٣/١٩٩١م

---

(١) ريح السموم هي الريح الحارة اللافحة.
(٢) هناك أسطورة سومرية قديمة تقول إن الأرواح لا تموت لكنها تنزل لقاع النهر.


حكاية الصغيرة
نوره



تريد أن تعمل، أعظم إنجاز للبشرية العمل، كل ذرّة في كيانها تدعوها لتحرقها.

ستعمل حتى يتفصد جسدها عرقًا، وحتى تتهاوى كل ذرة في قواها..

برد شباط وحمى آب يجتمعان في جسمها؛ كل شيء في البيت جعلته يلمع.. نظفت من فوق لتحت، الشبابيك ألصقتها، تأكدت أن لا نسمة تمر.." يأتي وقت نمنع فيه الهواء خوفًا من الموت.. يارب الكائنات يا الله!!.

لحديقة المنزل نزلت.. زرعت حوضًا بقدونس وآخر نعناعًا.. عند المداخل بذرت وردًا.. لا.. لم يبق كثير على مارس حيث تتفتح الزهور، وتكون في قمة جمالها في نيسان.. هل تعيش إلى نيسان؟!.. استغفرت ربها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم.

عند نخلة خلاص[1] تقبع فسيلة تلتف حول أمها.. حفرت بلطف حولها محاولة جهدها سلامة الجذور.. "بسم الله" قالت ثم خلعتها و.. وضعتها لصق أمها، وكأنها تعتذر قائلة "لا بأس أيتها الأم، آن لابنتك أن تكون هي الأخرى أمًا".

---

(١) نوع من أجود النخيل في منطقة الأحساء.

مؤذن المسجد القريب يدعو لصلاة الظهر.. صوت رخيم يدخل لب قلبها تردد خلفه ثم تدعو "اللهم رب هذه الدعوة التامة.." تكمل تلتهب دعاءً للمسلمين.. تلم كفيها حول وجهها وقد شرقت بدمعها.. يا ألمًا بالخاصرة.. يا خنجرًا يقصم الظهر..

لا بأس ستعود للفسيلة فيما بعد.

صعدت، صلت الظهر، جهزت المائدة للأبناء والزوج.. بقيت مشوشة الفكر.. نامت بعد الظهيرة مرهقة ، عندما استيقظت عصرًا طلبت من كبرى بنتيها إعداد الشاي والتم الشمل حوله..

أحمد الطالب الجامعي يشغل باله شيئان.. النتيجة لم تظهر بعد، وكيف يقنع أباه بضرورة تغيير سيارته.

هذه البنت الكبرى تفكر كيف ستمضي الإجازة الربيعية بلا سفر..

ورائحة الحرب تفوح بين سطور الصحف التي يقرؤها الوالد.. أما الصغيرة نورة فلديها حكاية لا تمل روايتها.. تخرج كلماتها الطفولية بجمال يذيب حلكة الأيام.. وجرح شفتها السفلى لم يندمل بعد أثر سقوطها من الدرج..

وحكاية نورة مع الشابة الأمريكية ترويها بتلذذ شديد.. كان أبوها ينتظر دوره ليحاسب في "السيف وي" عندما سبقته نورة للسيارة، شيء اعتاده منها، تسبقه لتختبئ، ويتظاهر بالبحث عنها فتضحك منه ملء شدقيها، عندما خرج تلك المرة لم يجدها بالسيارة، هلع أصاب قلبه،

نظر حواليه، وجدها تخرج من محل "ثرتي وان" ومعها قمع آيس كريم كبير تتناوب وأمريكية شابة لعقه.. وتتعالى ضحكاتهما الفرحة..

ركضت نورة لأبيها مبتهجة.. شكر الأمريكية، أركب نورة السيارة بجانبه وهي تخرج كلماتها الطفولية لتروي له كيف ركبت سيارة الجيش الكبيرة، وكيف أمسكت بعجلة القيادة، والقصة ترددها نورة مرات عديدة، وكأنها تستطعم الآيس كريم بفمها.

هذا الضجيج يدق في.. يافوخها.. يوقظها من غرفة النوم.. تلك الصفارات تنطلق بكل اتجاه تلف رأسها تضعه تحت المخدة لكن الصوت يتحداها فينفذ لكل جزء من كيانها.

الأبناء يغشاهم هلع وهم يرتدون الأقنعة الواقية كالخنازير برية.. لا أحد ممكن أن ينام، لا أحد ممكن أن ينسلخ من كيانه مهما كان...

غرفتان سُدّتا بإحكام.. الأنفاس تختنق وصوت مذيع CNN يعلو يصف المذيع بغداد وهي تحترق كشجرة عند ميلادها!!!

تنهض بسرعة، يحاول زوجها منعها، يعترضها ابنها مادًا ذراعيه.. تزيحه راكضة..

تهبط حيث الفسيلة.. تمسك بالفاس "بسم الله" تشق الأرض شقًا.. تضع الفسيلة، تلملم عليها التراب.. وتفتح الماء قليلاً قليلاً.. زعيق صفارات الإنذار مستمر، يخرج من بيتها صوت مُتحدٍّ.. "الله أكبر" أذان الفجر ينطلق.. ينسكب النداء أملاً وراحة في قلبها تتنفس بعمق

كأنها تستنشق النداء الرائع أيضًا.. صوت قدمي زوجها وهو ينزل مستجيبًا للنداء الرباني، تنهمر دموعها.. يمر، يمسح على رأسها، ويمضي بلا كلام للصلاة.. تعلو صلاة الفجر..

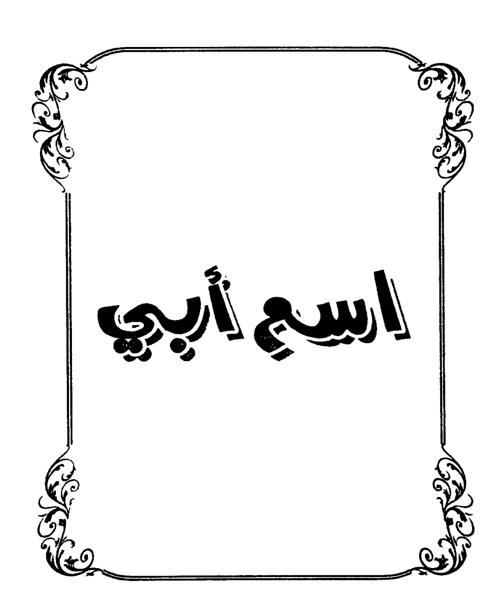
"الحمد لله.. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.. آمين..".

"لا أقسم بهذا البلد.." ثم الركعة الثانية فدعاء القنوت "اللهم سلط الظالمين على الظالمين..".

ترقى الدَّرَج.. تصلي.. تطيل الركوع والسجود، تسلم، تجد أحمد يصلي وهند تقرأ القرآن.. أما نورة فقد نامت، تحاول إيقاظها، لا ترد تحملها تضعها بفراش قد جهزته لها.. لحلكة الظلام لا تكتشف شحوب نورة.. ولا تكتشف أن نورة لن تعرف الحركة لاحقًا.. وأن شيئًا سار في دمها وتغلغل.. وتغلغل..

١٩/١/١٩٩١م





اسم أبي



كم مرة قفزت من غرفة النوم على صراخ أحد أبناء عمومتي (سوير.. سوير[1].. عاد أبوك)..

جذلى أنطلق لأطل من السطح على الفناء فأجد فراش أبي وقد نصب وهو نائم به، ما أن أنزل وأقرب بالفراش والشخص الذي قد تغطى إلا وينطلق ابن عم آخر فاتحًا ذراعيه بحركة وحشية ليقول لي: (أأأأأأأأووووووووه ه ه ه ه ه ه) يرتجف قلبي الصغير ويكاد يفر دمي من جسدي وتأخذني سورة بكاء طويلة تتدخل أمي وخالتي وعمتي ليهدئن من روعي.

أيامي كانت تمضي وطيف أبي يحيط بي ليل نهار، يردد عقلي الصغير ما أتذكره منه، كنت أجلس في حجره، وكان يقرأ في كتاب لعله شعر إذ يقال إن عشقي للشعر وراثة منه، كان صوت مذياعه الكبير ينطلق بأغنية لحضري أبو عزيز (عمي يا بياع الورد قل لي الورد بيش). وكان يردد معه ويضرب إصبعًا بآخر فيخرج صوت فرقعة ينتشي لها، ثم يرقصني، وأنا جذلى أنثر شَعري القصير ذات اليمين وذات الشمال.. يقبّلني ويعيدني لحجره.

كثيرًا ما كان يأتي بأمي ويُجلسها قبالته، ثم يبدأ بالرسم، لم يكن رسم امرأة بثوب عريض أبيض شفاف، هو رسم أمي كانت امرأة

(١) سوير: اسم تصغير لسارة

أخرى غير أمي، كانت تفرد ذراعيها وكأنها ستحلق في السماء. مبتسمة، وكانت أمي قلية الابتسام إلا أثناء رسمه لها، كانت ابتسامتها مزيجًا من سخرية خفيفة علّه شيء من متعة. لكنها بعد فترة تمل وتبدأ تتأهب للذهاب لتأدية عمل ما، لكنه سرعان ما يغلق دوني ودونها الباب، وأبدأ أصرخ فتأخذني خالتي إليها وتجعلني أنام في حجرها.

كان عمي الكبير قائدًا عسكريًا للبيت، ويحكمه حكمًا دكتاتوريًا، لا يريد للأطفال حركة ولا لهوًا، وكان أبي يزعجه بكثرة ما يبتدع ألعابًا للصغار.. لقد كان بيتنا يحوي خمس أُسَر، زوجة جدي التي هي خالتي وأعمامي وعماتي الصغار، وثلاثة أعمام كبار كل واحد وزوجته وأبناؤهم الذين يزدادون باستمرار.. وأسرتنا، أبي وأمي وأنا، وكان أخي في بطن أمي عندما غادرنا أبي، اختفى والدي في ليلة شتوية، لم أجده كان هناك صمت مطبق بالبيت، وأصبح السؤال يدور في أعماقي كالدوامة، أذهب للدرس وأنا سجينته، ألعب وهو يتحرك في داخلي كقطعة نار، (أين أبي؟) حتى علمت ولم أصدق ولن أصدق..

عرفت أن أبي في مستشفى للصحة النفسية، بعيدًا عنا، عجبت، لم يكن أبي إلا حنونًا عطوفًا لم يؤذ أحدًا، صحيح لم أره يذهب لعمل إلا لمامًا، لم يكن يشارك أعمامي وجدي التجارة، وكان أكره شيء عليه جمع الديون، فيهرب من هذا العمل بل سمعت ذات مرة ضجة، كانت لأعمامي يتناقشون بالسماح الذي منحه أبي للمدينين. وأثار حفيظتهم.

اختفى أبي بلا وداع لنا، جاء أخي حمد، كبر وراح يدق الأرض بقدميه الصغيرتين ليحاول المشي، وكنت في السابعة، أصبح أخي همي، منه أستمد رائحة أبي التي فقدتها، لكن سرعان.

الزمن يمضي بي مسرعًا وأبي ما يزال يُرقدني جنبه ويُسمعني من مذياعه (حضري أبو عزيز) أنام وأفيق وهو بين عيني، ومشاغبات أبناء عمومتي توقفت عندما خبأتني أمي عنهم في الغرفة، ألزمتني لبس الغطاء الكثيف الذي كثيرًا ما رميته ورحت أتعارك معهم بغفلة من أمي.

عروس في السابعة عشر أصبحت.. بدأت تزقزق عصافير قلبي وتبحث عن مَحَطّ، وكان المحط غير بعيد.. ابن جيراننا الوسيم ذو الشوارب السود الكثة والذي يحمل كتبًا بين يديه دومًا ويقول الأشعار أو يخبئها لي بين صفحات كتاب الهلال..

لكن بيروت تختطفه مني، أبقى أفكر به وتكسر تفكيري نورة ابنة عمي: (يا غبية هذا بحراني ليس منا). وأسقط بيدي، ولم أكن أميز كلنا سواء خلق الله ومن الله ولله.

ويأتي هو في الثلاثين، رجل يبز كل الرجال، حاملاً قلبًا حنونًا ومصباح علاء الدين يضعه بين يديّ وأنا لا أريد من جنّي المصباح إلا أبي.

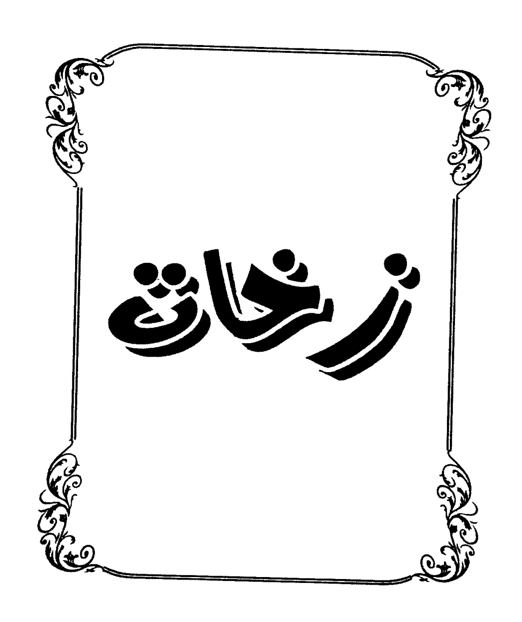
نكمل شهر العسل، ونطير لأبي.. حلمي بالفراش الذي أفتحه فأجد أبي، يتكرر في كل لحظة ودقيقة..

أصل المستشفى، والغرفة فارغة والفراش الفار..ر..ر..غ..غ..، يصيبني صمت، يصيبني تبلّد غريب كأنني حجارة صلدة، وحتى مشاعري لا أدري كنهها..

الفندق أصلُه.. لا أفكر لا أنطق، شيء يمسح عن فكري كل شيء من أنا من أكون..

أرتمي وأنام وفي نومي تصدح كل حياتي أعانقه أشكو له أبكي بين ذراعيه، أفز وكلي دموع، ونشيج لا أدري كيف أخلص حلقي المجروح وصوتي المبحوح منه.. وزوجي يسندني، يشد على يدي يأخذني ليكن الأب والأخ وأمل يفتح أمامي.. ،،، و ،،،،،،،، و،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،، و

ذهب أبي ما عدت في انتظاره، تمنيت أن أنتظر طفلاً أسميه باسم أبي، لكن بطني ضَنَّ عليّ بذلك فقد كان الرجل الحامل لمصباح علاء الدين ينقصه شيء بالملايين عند أغلب الرجال أغنياء وفقراء، شيء يلتصق بجدار الرحم ليكون نطفة فعلقة، ثم عظمًا، ثم يكسو الله العظم لحمًا.. ويصرخ ليكون له اسم.. فأسميه باسم أبي..





قــول:

كان ينتظر أن تقول له عندما عرفته إنها رأت العالم من جديد، عرفت أول شعاع للشمس، وأول زخَة مطر، عرفت انسكاب النور على عشب أخضر، والقمر وهالة الحب حوله، لكنها كانت تقول في داخلها شيئًا آخر؛ عندما عرفتُك، نسيتُ القراءة والكتابة، وحملتُ الضجر.

عقيق يماني

يحتفلون، يوزعون الحلوى والعصائر، وهي تنسج في خيالاتها على نول قديم أردية صلاة وسجادة.. في إصبعها البنصر خاتم عتيق، خاتم بعقيق يماني يكاد ينطفئ لونه.. وفي حياتها تعتاش العقوق..

تتقدم الأخصائية، والخادمات، ويبتسم للعدسات.. والتلفزة تنقل احتفالاً بيوم المسنين.

سلحفــاة

من المحيط للخليج تحمل صدفتها، .. تخبئ في مكمن صغارها.. تتفقس الصغار، سلاحف تريد البحر.. تسحقها أقدام حديدية لجند حمر.. وينتحر على ظهورها الزمان والمكان.

وجـــه

عندما دخلَت البيت، خلعَت عباءتها وغطاء وجهها.. نفضَت شَعرها، التفتَت للمرآة رأت وجه طفل ليس وجهها قبل قليل.. ابتسمت له فابتسم لها.. عندها تأكدت أنها فعلاً في البيت وأن الوجه الآخر علقته مع عدة الخروج..

ليـــل

زرازير السدرة احتفلت بقدوم الليل، ضجوا جميعًا بأغنية المساء، ثم صمتوا.. وبقيت زرازير عقلها تضج مع نشرات الأخبار.

الجريـدة

رأسه في الجريدة، النظارة عند منتصف أنفه، هي تريد الجريدة، تتحين الفرص لعله يضعها جانبا، تسأله إن كان يريد شايًا.. يهز رأسه (لا) ويمضي يتابع أخبار الجريدة.. قلم الرصاص في يدها.. تريد الكلمات المتقاطعة..

الشـتاء

قال الجد: لقد هلّ الشتاء.

قالت البنت الصغيرة: سنسعد بعودة الجمر والحليب بالزنجبيل.

قالت الأم: وسأصنع الحنيني والعصيد.

أطفال آخرون قالوا: يا ويلنا سنجمد من البرد..

أمهات كثر حضنوا الصغار وغنين لهم أغنية المساء، فنام الصغار يحلمون بدفء للشتاء.

الفــأرة والقــط

ملّت الفأرة من لعبة الشرطي والحرامي مع القط، قررت البحث عن لعبة أخرى جديدة تجعلها تضحك ملء شدقيها من القط الغبي. لقد سمعت من جدتها التي أخبرتها عن جدة جدتها أن القطط لا تأكل الفئران الميتة، تظاهرت بالموت، أكلها القط وشرب فوقها زجاجة كولا.

البنــات والجبــل

ثلاث بنات فوق الجبل، الأولى قالت: إنني أحب نتف الثلج في الصباح الباكر.

الثانية قالت: وأنا أحب الربيع عندما تشق خضرته وجه الجبل.

الثالثة لم تقل شيئا كانت تنظر لطائرة ترمي القنابل أسفل الجبل.

القابلة والجنين

قالت القابلة للجنين: اخرج، أمك تتألم.

قال الجنين: لن أخرج، إنني سعيد هنا.

قالت القابلة: اخرج أمك تموت، إخوتك يتيتَّمون.

الجنين قال: لا شأن لي بأحد، هنا أنا مرتاح، مكان دافئ لطيف وأسمع أصواتًا رقيقة وأتغذى غذاءًا طيبًا، لن أخرج..

القابلة ضغطت على بطن الأم بقوة، اندفع الجنين خارجًا، صرخ، ضربته على مؤخرته، صرخ وصرخ وما زال يصرخ حتى بعدما صار له أبناء وأحفاد..

رضــاعة

ذات يوم لم تستطع أم رضاعة أطفالها، أرضعتهم كلبة، شبوا يُهَوْهِوون.

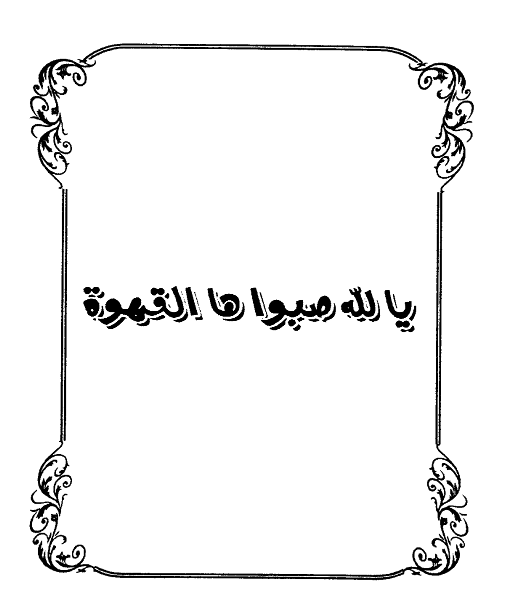
الصـــراع

ريح الشمال قالت، ستهب محملة بالمطر، على أراضي الفقراء فتنبت لهم الشقراء، فيصنعون منها خبزًا كوجه القمر، غضبت ريح الجنوب، وقالت أراضي الفقراء منطقة نفوذي ولن يحتاجوا فأنا أعطيهم ريحًا رطبة.

نفشت ريح الشمال شعرها، واستعدت للقتال، وكذا فعلت ريح الجنوب، وكانت معركة لم ينتصر بها أحد، عندما جلستا للراحة كان المنظر الذي تركتاه لا يمكن أن يرسمه أحد.

صقيــع

جاء الصقيع مبكرًا، لكنه وجد صقيعًا قديمًا قد سبقه، احتل الشوارع والأسواق والمنازل وعشش في العواطف.. جلس حزينًا عند عتبة بيت قديم، فتحت عجوز الباب، شاهدته، أعطته حزمة حطب، أشعلها وجلس يتدفأ عليها، فساح وساح، ولم تدفأ مشاعر الناس..



يا الله صبوا ها القهوة



كان يوم خميس، كان زمان آب، أصبح الخميس وآب خنجرًا في صدري، نعم خنجر.. مِتُّ، لا أذكر اليد التي طعنتني، كانت الأيادي كثيرة، خنجر الخميس في آب الأخير كان الأقوى.. خرجت للشارع.. وأنا أقول في خاطري لا شك أن الجميع علِم بموتي.. قابلت عامل البلدية.. انتظرت أن يلتفت إليّ.. لكنه مضى يجمع القمامة وكأن دمي المسفوح لا يهمه..

صرختُ به: (انظر إني ميتة).. التفتَ يمينًا وشمالاً ومضى..

كان حفل افتتاح في محل كبير للأطعمة السريعة، قلت سأنكد عليهم حفلتهم.. وقفت بين الشريط والباب.. ويقطر من الخنجر دمي.. مد كبيرهم يده وقص الشريط، صفق له الحضور ومضوا مبتهجين للداخل.. صرخت (أنا ميتة، أكبر شاعرة بالبلد ميتة.. انظروا المعلقات السبع، أنا قلتها، انظروا آلاف القصائد، أنا التي أبدعتها).. لم يلتفت إليّ أحد.

كان الموت يقطر من دمي واليأس يحطم رأسي.. حاولت دخول مقهى، طردني النادل.. (المقهى للرجال فقط يا امرأة) لكني ميتة أريد أن أعلمهم بموتي، وهم لا يعلمون.

كانت سميرة توفيق تدحرج شحمها على شاشة التلفزيون وتصرخ والجمهور يتبعها:

(يا لله صبوا ها القهوة..

وزيدوها هيل..

واسقوها للنشامى..

ع ظهور الخيل).

على عتبة المقهى ارتميت.. خيط دمي يكتب شعرًا للمعرّي وأبي فراس.. والمتنبي.

يدوسون عليَّ ويمضون.. تتعالى بربرات الماء من أراجيلهم وصخبهم.

جررت جسدي المرمي وقلت سأذهب لأخبر العالم بموتي.. إلى هاتف جلست، نظر إليّ العامل وقال (تفضلي).. قلت(إنّي ميتة.. أريد أن أخبر العالم بذلك).. لفّ رأسه وقال (لا حول ولا قوة إلا بالله، يوم نحس، حتى المجانين لا يتركوننا).. قلت له (يا سيدي.. انظر دمي)..

نظرات خوف قفزت من عينيه وتشاغل عني.. لكني ميتة!..

أخيرًا تعبت وجلست.. عندها جلس آخر المجانين بقربي قلت له (إني ميتة مطعونة..) قال..(أنا كذلك، هذا رأسي) مدّ لي رأسه.. اسود لسانه المندلع.

قلت له: (أنت تصدقني..)

قال: (نعم)

قلت له: (لماذا صدقتني؟)

قال: (في عشيرتنا قيل: أين عاقلكم؟!..)

قالوا: (ذلك المربوط).. كنتُ أنا..

قلت له: (يعني أنت مجنون العقلاء)..

قال: (بل أعقل المجانين).

أفسح لي المجال، جلست بجانبه.. أقلّب رأسه بين يديّ وينقش من دمي رواية لا يجف حبرها.. بينما صوت سميرة توفيق يلعلع:

(يا لله صبوا ها القهوة..

وزيدوها هيل)..

الدمام ١٠/٩/١٩٩٨م



بيضة وقطة



دجلــة يتعــرج

دجلة يسير حاملاً آلاف الأسرار من عهود قديمة، من قبل السومريين والبابليين، ومن قبل أن يفتح (هيرودست)[1] أوراقه.والفرات كم من حكايات لديه، قصص رُسمت على الكهوف في الجبال، قصص قطرات الماء كل قطرة وراءها حكاية، تتجمع بمسيرتها وتحكي، هنا الكلدانيون، وهناك مدينة الحضر وعن بعد نينوى والآشوريون، وآشور بانيبال يحمل الصولجان.

دجلة يزحف للفرات عاشقًا يمر على المدن يقبّل الأرض بانتظار الوصول للقرنة حيث العناق الأبدي.

كربلاء والنجف، جفت الدماء وما جفت الذكريات سنة بعد سنة ومواكب الأحزان تجتر بالعراق، قديم يتجدد، تصرخ النسوة وتغني مواويلها الحزينة فيغنى الفرات مرددًا مواويل كثيرًا ويبكي كثيرًا كشأن العراق، يفيض دمعه في نيسان ويكاد يُغرق كثيرًا من المدن، فكان أن أبدع العراقيون منذ القدم السدود والموانع ترابية وحجرية.

دجلة في الناصرية يقف عند أور يحدث الملكة شبعاد ويحمل عبق التاريخ معه، وعند بابل يخاطب حمورابي، ويغسل جنائن بابل المعلقة، ويعتذر لنبوخذ نصر الذي جعلوه مجنونًا.

---

(١) هيرودست: أول من كتب التاريخ، يُلقب بأبي التاريخ.

يصل العاشق للمعشوق عند عتبة البصرة، فيعقد قرانهما في القرنة، فيلدان شط العرب قويًا هادرًا، ليتقدم للخليج عاشقًا مرة، ومفاخرًا مرات، يوشوش الخليج عن المغول وعن الدماء والحبر المسكوب في الكتب، ووجهه محمَرٌّ دمًا وحبرًا وخجلاً، وعن الأسماك التي نفقت من جِيَف، ضمد البحر جراحه وبملحه عقمه وواساه ومسكا أيديهما بعناق جميل، أتت ضاحكة سمكات الزبيدي والتفت حول نفسها فكان جسمها بلونه الفضي يعكس أشعة الخليج الذي تمتزج به العروق العربية بالفارسية. سمك الزبيدي كغادة امتلأت حبًا وعشقًا يتراقص على سطح المياه، تلقفتها أفواه الموسرين وصبر سمك الصبور فكان طعامًا لفلاحي نخيل الحلاوي والبرحي على الضفتين الإيرانية والعراقية، فالتراب لا يعترف بالسياسة ولا بالجنس والقومية. فهو تراب الله في أراضي الله.

في بغداد يلتفت (دجلة الخير)[١]، وينظر للسعدون[٢] وهو قابع عند البوابة الشرقية لبغداد التي تحترق، مادًا يده، أتُراه يطلب من الله غفرانًا ورحمة للمدينة التي تحترق أم تراه يتجه (للزوراء)[٣] فيدعو هارون الرشيد (الحاج الغاز)[٤] للقدوم ليساهم بإنقاذ المدينة. أم ينتظر

---

(١) دجلة الخير: عنوان قصيدة للشاعر العراقي الكبير الجواهري.
(٢) السعدون: رئيس وزراء عراقي رفض التوقيع على معاهدة بريطانية تجعل العراق راكعًا لبريطانيا، وفضل الموت منتحرًا، وكتب وصية بذلك.
(٣) الزوراء: عاصمة هارون الرشيد، قريبة من بغداد.
(٤) حاج غاز: عبارة مكتوبة على عمامة هارون الرشيد.

إمدادًا من خالد بن الوليد، فتجيبه عناقيد القنابل، وصواريخ توما هوك، لتصم أذنيه.

وهناك سيدة في دارها تهتز مع كل صفارة إنذار، وتقول في داخلها (صفري أو لا تصِفري لن أمضي لملجأ، تكفينا (عامرية)[1] واحدة نموت في منازلنا أفضل مما تختلط جثثنا فحمًا ببعضها)، وبيضة يتيمة في يدها، وسؤال يدور في عقلها: فم من تطعمها؟.

أباها الشيخ الذي بترت يده وهو رضيع في حضن أمه أثناء ثورة العشرين حيث اختلط فُتات يده بفُتات لحم أمه، وطار ثديها من فمه ليكون لحمًا مشويًا، أم زوجها ذاك الذي أُخذ ليلاً، فكان طعامًا للتعذيب من قبل رفاق الكفاح، وعاد مهزوز الشخصية والبدن، ويده اليمنى لا تكاد من رجفة تصل لفمه. أم ابنها ذاك الذي يردد أناشيدًا بصورة ببغاوية، وتخشى أن تمنعه، فتكون لقمة لتعذيب فلا يبقى بالمنزل من يعتني بهؤلاء.

فَم من؟ وكيف تطبخها، مسلوقة بلا ماء ودجلة يمر ساكنًا خجلاً ثقيل الجريان من حديد القنابل، والجسور المنسوفة، وآه من الجسور كلما مر الجسر المُعلَّق في خاطرها، تذكرت كم مرة مشَت عليه بصحبته، وكم اتكآ على سوره محدّثَيْن دجلة شِعر عشقهما، وكم، وكم،

---

(١) العامرية: ملجأ تمت به أكبر إبادة جماعية لنساء وأطفال العراقيين إذ قُتل أكثر من سبعمائة شخص دفعة واحدة في حرب الخليج الثانية.

سقط المعلق كما سقطت أحلامها المعلقة بالهواء، نسفها الأهل قبل أن ينسف الحلفاء الجسر المعلق.

كيف تسلق البيضة وقد جف حتى ماء العينين؟

(بيضة يتيمة، وفَمَ من تطعمها؟) تقليها؟ كيف تقليها بلا زيت؟ من أين لها زيت وزيوت البشر جفت من رعب؟ وزيت الأرض أتى بنار تبيد ما فوقها ليبقى ما تحتها لهم يمتصونه عامًا بعد عام؟.

كيف تدع من يقع عليه الخيار أن يأكلها والأفواه الباقية تنظر إليه؟.

مدينة النور يصعب فيها وجود النار، برد كانون اختلط بنار تموز، فكان لهيب الأرض أقوى من لهيب آب، وأصوات السيارات الهاربة من نار إلى نار، تختلط مع صفارات الإنذار مع أصوات القنابل وطائرات ال(B٥٢) بصواريخها القادمة من بلاد قريبة، لم يبق نسيب ولا قريب إلا من رحمَ الله.

بيضة كيف تطبخها؟ تصعب النار في بلد تشب حرائقه في كل مكان. ولياليه حمراء ليس من عبث، وشمسه تختبئ خجلاً وراء الدخان نهارًا. فلم يعد الليل ليلاً، ولا بالنهار نور.

تهز صواريخ توما هوك الأرض تحت قدميها، ينخلع قلبها.. يتصاعد اللهب لكبد السماء، بعض الكائنات تملك الفرصة لصرخة أخيرة وبعضها تموت صامتة، يغمى عليها وتسقط البيضة من يدها،

عندما يعود وعيها، تجد قطة تلعق بقايا البيضة، بلا تفكير تقتنصها، سكين حادة ووجه للقبلة، وبسم الله والله أكبر، تذبحها.

تبحث عن موقد لتشويها بعد أن تبهرها بكل ما تملك من بهارات وتملّحها، في الحديقة الصغيرة تحفر حفرة، تجمع النباتات التي جفت وبعض سعفات من النخلة القديمة، ورأت أن النار لن تكفي تدخل وتأخذ الكتب هذا خرابنا قالت في خاطرها وهي تنقل الكتب السياسية رأس المال، والأمير، وكتب لشيوعيين وبعثيين، تتناول كتبًا لساطع الحصري، في داخلها تشتم العروبة ثم ترميها، جواهر الأدب، مقدمة ابن خلدون، تاريخ الأندلس، تفكر وهي تمسكه على صدرها ثم ترميه بعنف، لم يبق شيء يستحق الوقوف على أطلاله، والمعلقات السبع، وألف ليلة وليلة، تضرم النار بحك حجر بحجر، درس عملي علمتها الحاجة اللجوء إليه.

عندما تضطرم النار تضع الهرة في داخلها وتهيل التراب بعد أن تترك مجرى لسريان الهواء،

تفوح رائحة الشواء، وتأتي الأفواه الجائعة تسألها، تجيبها أرنب بري هرب من نار الصحراء لنار المدينة، يقول الزوج (ولو كان خنزيرًا). يستعيذ الأب من الشيطان الرجيم، تمتد الأيادي، تمد يدها بقرف تحاول ألا تُشعر الآخرين به، لا تتحمل معدتها، قليلاً ثم تبدأ نوبة قيء قوية، في الوقت نفسه كان هناك رجال شقر يضعون سماعات على آذانهم، وموسيقى جميلة تنطلق لتنعش روحهم، وبفمهم

لبان يمضغونه وأياديهم على زرار تضغط، كما كان أجدادهم يرقصون وهم يمنحون الهنود الحمر بطانيات ملوثة ببراغيث التيفوئيد والطاعون، تحرك أزرارهم قنابل نحو المدن تسقط أحدها على بيتها، تتساقط أجسام خمسة، يختلط الدم بالقيء ببقايا قطة لعقت بيضة.

راديو الجيران البعيدين يردد أناشيد تمجد الزعيم الضارب، وتلفاز الجيران القريبين يحيي الزعيم المضروب، وامرأة عربية تلد طفلاً تدعوه (بوش).

كانون الثاني ١٩٩١م

الفهـــرس





مطابع الدار الهندسية/القاهرة
تليفون/فاكس : (٢٠٢) ٥٤٠٢٥٩٨